محمود شلبي

حياة صلاح الدين

دار الجيل

بيروت

حياة صلاح الدين

محمود شلبي

حياة صلاح الدين

دار الجيل
بيروت - لبنان

الطبعـــة الثالثة
١٤٠٩ هـ — ١٩٨٩ م

الإهـــداء

اللهم . . . منك . . . وإليك

محمود شلبي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقــدّمة

الحمد لله رب العالمين . . . وأصلي . . . وأسلم . . . على سيد المرسلين . . .

وبعد . . .

صلاح الدين ؟ ! !

ذلكم . . . البطل . . . العبقري . . . المؤمن . . . العظيم . . . الإنسان !

ذلكم . . . السياسي . . . الذي كان العالم كله . . . يدور في فلكه . . . في عصره ! ! !

فهو رأس العالم الإسلامي . . . والغرب كله يصارعه ويحاربه ! ! !

والبطل يقود الشرق . . . ويضرب به الغرب . . . في عبقرية . . . ما زال التاريخ في عجب من عجائبها ! ! !

ذلكم البطل الأسطوري . . . أعرضه عرضاً أميناً . . . كما كان يراه أهل عصره الأمناء على الحقيقة . . .

ثم أحلل لك شخصيته . . . من خلال وقائعه . . . تحليلاً ! ! !

فتتلاقى تحت عينيك الوقائع . . . لترسم لك صورة صادقة . . .

لذلكم العبقري العظيم ! ! !

محمود شلبي

القدر يمهد لظهور البطل

المجتمع الاسلامي قبيل الحروب الصليبية

إن من يلقي نظرة على المجتمع الإسلامي قبل إعلان الحروب الصليبية (أي خلال القرن الخامس الهجري والحادي عشر المسيحي) يعرف الظروف التي اختارتها الأمم الغربية للقيام بالحملات الصليبية .

مصر الفاطمية :

فمصر الفاطمية كانت تعاني مصيبة الدول التي تضعضع سلطانها وأشرفت على الانحلال والاضمحلال . فقد كانت مصر نهباً للثورات الداخلية والمنازعات ما بين الطوائف المختلفة من مماليك أتراك وسودانيين ومغاربة . وكانت المجاعات والقحط والأوبئة تغشاها وتنهك من قواها . وكانت اغتيالات الخلفاء والوزراء تدبر بأشكال مختلفة ومتنوعة .

الشرق الأوسط والخلافة العباسية :

كانت الخلافة العباسية في القرن الخامس الهجري على حالة يرثى لها من الفوضى والانحلال . وهكذا ما حان موعد الحروب الصليبية حتّى كان المشرق الإسلامي في غاية الفوضى والارتباك والتنازع .

البلاد الشامية في القرن الخامس الهجري :

في مطلع القرن الخامس كانت سورية في الفوضى التي أحدثها الحاكم

بأمر الله الفاطمي . واستمر الاضطراب ببلاد الشام حتى انتزعها السلاجقة من الفاطميين ، ولم تسلم في عهدهم من القتال والنزاع والخصام من أجلها . وقبيل اندلاع الحروب الصليبية كانت بلاد الشام موزعة على الأمراء والسلاجقة المتنازعين .

الحالة بافريقية وصقلية والأندلس :

في أوائل القرن الخامس الهجري ، كانت افريقية يعمها كلها الفوضى والتخريب والاضطراب من برقة إلى القيروان ، وذلك بعد أن انفصلت عن الفاطميين .

أما صقلية فقد لاقت من الثورات والمعارك والاضطرابات الداخلية ما جعلها فريسة سائغة لهجمات النورمان ، فاندفعوا إليها وهاجموها بينما أبناؤها يتقاتلون ويتنافسون ويعربدون .

وما كانت سنة ٤٨٤ هـ ١٠٩١ م حتى سقطت صقلية نهائياً في أيدي النرمان ، ومحيت من خريطة البلاد الإسلامية ، فكانت الشهيدة الأولى التي ذهبت ضحية الإهمال والتخاذل . وكانت حالة المسلمين السيئة بصقلية من التضعضع والتقهقر أمام جيوش النورمان قد أغرت هؤلاء الغزاة على الإقدام واقتحام الشواطىء الإسلامية بافريقية من بجاية إلى طرابلس الغرب .

أما في الأندلس — الفردوس المفقود ، والشهيدة الثانية — فقد كان القرن الخامس الهجري فيها قرناً حاسماً لما بين عهدها الزاهر السابق وما بين عهد تراجعها واضمحلالها . وكانت سنة ٤٠٧ مبدأ التفرق والتمزق ، فكان عصر ملوك الطوائف الذين تكالبوا على الفتك ببعضهم واستنجادهم بملوك النصارى ضد بعضهم بعضاً ، وانتهز النصارى الفرصة السانحة التي ينتظرونها منذ فتح الأندلس على يد طارق بن زياد ، وأخذت النتائج الإيجابية تظهر لفائدة النصارى .

وبالجملة تلك هي حالة المجتمع الإسلامي قبيل نشوب الحروب الصليبية.

وإنها لحالة مغرية للنصارى بالإقدام على أخذ الثأر ورد الفعل . وقد طال انتظار الأمم النصرانية لهذا الأمر . فمنذ أن التقت القوات الإسلامية بالقوات البيزنطية المسيحية في فلسطين سنة ١٣ هجرية وانتصار المسلمين عليهم في معارك اليرموك واجنادين ، منذ ذلك الوقت والإسلام يهاجم النصارى ويفتح أراضيهم ، فبقي النصارى يترقبون الفرصة المتيحة والزمن المناسب فكانت أواخر القرن الخامس الهجري أحسن الفرص للانتهاز ، بعد أن عجموا عوده وذاقوا حلاوة الانتصار عليه وافتكاك بعض أراضيه واسترجاعها إلى نفوذهم .

لقد ذاقوا حلاوة الانتصار بأطراف مملكته الواسعة فليهاجموه بعقر داره بعد أن هاجموه بأطرافه .

فرق الاسماعيلية

كان يصحب حالة التضعضع السياسي في المشرق الإسلامي — قبل نشوب الحروب الصليبية — حالة أخرى من التشتت والاختلاف ما بين الطوائف والمذاهب الإسلامية من سُنيين وشيعة . وكان الإسماعيليون أشد عداء على جماعة المسلمين ، يعملون على النيل منهم والفتك بهم ، ولو كان ذلك على حساب صالح المجموع .

والإسماعيليون ينسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق . ومن أشهر فرق الإسماعيلية : ١) القرامطة . ٢) الفاطميون . ٣) الحشاشون .

أما القرامطة فإنهم — منذ أواخر القرن الثالث — كانوا يبثون الرعب والفزع ، وكانت اعتداءاتهم دون حصر ، فكانوا يبيحون سفك الدماء ، ويغيرون على الآمنين في الجزيرة العربية والعراق والشام . وكانوا بعملهم هذا من أشد المعاول تهديماً لكيان الخلافة العباسية والمجتمع الإسلامي .

ولئن تمكن الفاطميون من الاستيلاء على الشام بعد نهاية القرامطة ، فإن عداءهم للسلاجقة السنيين جعلهم ينتهزون فرصة الهجوم الصليبي ليكيدوا للسلاجقة .

ولكن الأخطر من كل ذلك هي فرقة الإسماعيلية التي اشتهرت أيضاً باسم « الحشاشون » والتي كانت أخطر جمعية إرهابية عرفها المشرق الإسلامي . تعاونت هذه الفرقة مع الصليبيين وفتكت بالكثير من قادة المسلمين ورجالاتهم

ومما ساعد على نجاحهم في بلاد الشام في أواخر القرن الخامس الهجري (أواخر القرن الحادي عشر الميلادي) أنها كانت مرتعاً خصيباً للصراع بين الفاطميين والسلاجقة والصليبيين ، الذين أفلحوا في تأسيس مملكة لاتينية لهم في الأراضي المقدسة على حساب هذه الفوضى الضاربة أطنابها في الشرق الإسلامي .

كما مكنت هذه الاضطرابات الإسماعيلية من الاستيلاء على عدد من القلاع الجبلية القوية المتناثرة في جبال لبنان ، وتكوين مجتمعات إسماعيلية هناك لا هم لها إلاّ العمل على تثبيت أقدامها بكافة الطرق والوسائل .

وأضحوا قوة سياسية لا يستهان بها ، وبات أمراء المسلمين والفرنج يخافون بطشهم ويحسبون حسابهم .

وكانت سياستهم تقوم على الفتك بمن يعترضهم في سبيل تحقيق غاياتهم .

وقد حفل تاريخهم بالإرهاب السياسي والاغتيالات المنظمة ضد الزعماء السنيين وكبار الفرنج على السواء .

فكان من بين ضحاياهم الأمير مودود قائد جيوش الموصل الذي قتلوه سنة ٥٠٧ هـ/١١١٣ م .

وكونراد دي منتفرات صاحب صور الذي اغتالوه في ٥٨٨ هـ/١١٩٢ م .

وكاد صلاح الدين الأيوبي أن يذهب ضحية إحدى مؤامراتهم في سنة ٥٧١ هـ/١١٧٥ م ، حيث وثبت جماعة منهم عليه ، ولم يمنعه من سيوفهم سوى دروعه المنيعة التي حالت دون اغتيالهم لأعظم بطل إسلامي في الحروب الصليبية .

وهكذا غدت طائفة الإسماعيلية في الشام عاملاً قوي الأثر في حوادث

هذا العصر وتطوراته . وزاد من أهمية الدور الذي قامت به معاصرتها للحروب الصليبية الأولى ، فعاشت في كنفها وترعرعت بين أحضانها .

وقد ألفت في انقسام المسلمين وفي المعارك الصليبية ، مجالاً واسعاً لنشاطها ومؤامراتها .

واستطاع الإسماعيلية أن يستغلوا هذه الظروف في ملء خزائنهم وتثبيت دعائم دولتهم .

وكان أمراء المسلمين والفرنج يتوددون إليهم ويلتمسون محالفتهم خوفاً من صولتهم .

كما كان الإسماعيلية أنفسهم يتقلبون في محالفة الفريقين طبقاً لما تمليه عليهم مصالحهم .

وكان كبير الإسماعيلية بالشام يعرف باسم « شيخ الجبل » .

لقد كان حشيشية الشام شوكة في جنب الإسلام والمسلمين ، وفي جنب كل مجاهد عربي يحاول توحيد القوى الإسلامية لدرء خطر الفرنج .

وقد ظهر ذلك واضحاً منهم منذ البداية في عهد الحروب الصليبية الأولى ، مما أتاح للاتين فرصاً عديدة استغلوها لتوطيد دعائم مملكتهم .

ويكفي أن لقي نور الدين زنكي وصلاح الدين على أيديهم الشيء الكثير من العنت والمضايقات .

وكان شيخ الجبل عند خروجه يتقدمه أحد فداويته حاملاً فأس حرب ذات مقبض مغطى بالفضة وقد رشق كله بالخناجر ، وهو يصيح بصوت مرتفع : « افسحوا الطريق أمام ذلك الذي يحمل مصارع الملوك في قبضته » .

وذكر القلقشندي أنهم يعتقدون « أن الأرواح مسجونة في هذه الأجسام المكلفة بطاعة الإمام المطهر فإذا انتقلت على الطاعة كانت قد تخلصت وانتقلت للأنوار العلوية ، وإن انتقلت على العصيان هوت في الظلمات السفلية . وكانوا لا يرهبون الموت ، ولا يتدرعون عندما يذهبون للقتال ، لأنهم يؤمنون أن لكل أجل كتاباً ، وأن الإنسان لا يموت قبل أجله المقدر له . وأنهم عندما يسبون أطفالهم يقولون لهم « ملعونون أنتم كالفرنج الذين يلبسون الدروع خوفاً من الموت » .

وكان شيخ الجبل يستخدم اتباعه من الفداوية في قتل أعدائه ، ويشترط فيهم التفاني في طاعته بحيث يضحون بأنفسهم في سبيل تنفيذ تلك الطاعة لينعموا بدار الخلد المقيم .

وأصبحوا أداة فعالة للانتقـــام والإرهــــاب . ومهروا في فن التنكر واستخدام السلاح . كما كانوا يجيدون التكلم باللغات الأجنبية .

وكانوا يقتلون المسلمين أيام الجمع في المساجد . والمسيحيين أيام الآحاد في الكنائس ، على مشهد من الناس .

وخلاصة القول ان برنامجهم كان يقتضي اجادة الخنجر ضد المعارضين . فكان من أثر ذلك أن نشروا الرعب الذي كان يفزع له الملوك والأمراء .

وقد لبث الإسماعيلية متحصنين بقلاعهم المشهورة في لبنان ، تلك القلاع التي ظلت قذى في أعين الصليبيين والمسلمين إلى أن جاء السلطان الظاهر بيبرس فحاصرها سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م وخربها وضمها إلى مملكته .

وبذلك انهار نفوذهم في الشام ، واستحالوا شراذم لا أهمية لها ، وأسدل الستار على تاريخهم الحافل بالتقلب والإرهاب والجاسوسية والمؤامرات .

الحروب الصليبية

لم تكن الحروب الصليبية في معناها الواسع إلاّ فترة زمنية ولوناً خاصاً من ذلك الصراع الدائم ما بين الشرق والغرب ، ذلك الصراع الذي اختلفت تسميته باختلاف الأزمان والمقاصد .

فإذا كان هذا الصراع يتمثل في العصور القديمة ما بين الفرس من جهة واليونان والرومان من جهة أخرى متخذاً صبغة الغزو والاكتساح في سبيل تكوين السلطنات العظمى والأمبراطوريات العالمية ، فإنه في العصور الوسطى اتخذ الصبغة الدينية من الجهاد الإسلامي والحروب الصليبية الأوروبية .

أما في العصور الحديثة فإن صبغة هذا النزاع كانت هذا الاستعمار الذي ران على الشرق عموماً والإسلام خصوصاً في أشكال متباينة وأوضاع مختلفة اعتمد فيها الغرب — أكثر ما اعتمد — على الحيل والدسائس .

ويبتدىء دور الإسلام في هذا الصراع ما بين الشرق والغرب منذ أن بدأ الإسلام يتجاوز حدود الجزيرة العربية ، فوقعة القادسية — ١٦ هـ — كانت معركة حاسمة لإخضاع البلاد الفارسية التي كانت تتزعم الشرق في مصارعة الغرب .

وبذلك تقلد العرب المسلمون هذه الزعامة في الصراع العالمي . وأصبح النزاع ماثلاً ما بين الإسلام في الشرق والأمم النصرانية في الغرب .

أما بدء الصراع ما بين الإسلام والنصرانية فقد كان في فلسطين وكانت وقائع أجنادين — ١٣ هـ — واليرموك — ١٥ هـ — معارك فاصلة لازالة النفوذ البيزنطي عن كامل بلاد الشام ، ودخول بيت المقدس — ١٥ هـ — تحت حماية الإسلام وسيادته .

وتتابعت الفتوحات الإسلامية فشملت مصر وبرقة وافريقية والمغرب وكانت خاضعة للروم البيزنطيين .

ثم تتجاوز الفتوحات الإسلامية ذلك فتعبر المضيق بقيادة طارق بن زياد إلى الأندلس ، وتزيل النفوذ القوطي المسيحي عنها . وتتقدم الفتوحات الإسلامية وراء جبال البرانس وتصل إلى اواسط فرنسا ، وازدادت الفتوحات الإسلامية عظمة واتساعاً ، بالاستيلاء على معظم جزر البحر الأبيض المتوسط من رودس إلى صقلية وجنوب شبه جزيرة إيطاليا . بل حاول بعض الغزاة المسلمين محاصرة مدينة روما وفتحها . كما حاول المسلمون فتح القسطنطينية عدة مرات ولكن الإمكانيات لم تسعفهم بذلك في تلك الأزمنة الأولى .

ومحاولة المسلمين فتح روما والقسطنطينية معناه محاولتهم لفتح مواطن السيادة النصرانية في عاصمتيها الغربية والشرقية. ومن ناحية أخرى فإن خسارة الأمبراطورية البيزنطية بسبب الفتوحات الإسلامية كانت خسارة بالغة ، إذ انتزعت منها غالب مملكاتها ولم يبق الا جزء ضئيل من أملاكها الواسعة ، فانحصرت دائرتها في شبه جزيرة البلقان والأناضول وجزء من جنوب إيطاليا .

وكان البيزنطيون يجزمون ببعد الخطر عن القسطنطينية ما دامت بلاد الأناضول تحت نفوذهم وسيادتهم . ولهذا ما أن اكتسح السلاجقة بلاد الأناضول — فيما بعد — واقتربوا من بحر مرمرة حتى هال البيزنطيين الأمر ؛ وأخذوا يستنجدون بأمم أوروبا وأعلنوا أن القسطنطينية في خطر وأن هذا الخطر لا يهدد القسطنطينية وحدها بل يهدد أوروبا بتمامها .

لقد كانت عظمة الفتوحات الإسلامية تحز في نفوس النصارى ، وكان أثر هذه الفتوحات يحملهم على الحقد والبغض للإسلام أكثر مما يحملهم على الإعجاب والخوف منه . ولهذا فإنهم كانوا يتحرقون شوقاً إلى اليوم الذي يستطيعون فيه رد الفعل والأخذ بالثأر وإرجاع النفوذ في مناطق غنية بخيراتها المادية والروحية . وإذ كانت النهضة الإسلامية في عنفوانها فلا سبيل إلى الإقدام على مهاجمتها . وإنما ينبغي الانتظار للفرصة المتيحة والوقت المناسب.

لماذا أشعلت اوروبا الحروب الصليبية

أ ــ تهديد القسطنطينية بالاحتلال من طرف السلاجقة واستنجاد أمبراطور بيزنطة بالبابا والأمم النصرانية :

يعتبر تأسيس مدينة القسطنطينية مبنيا من أول أمره على الاعتبار الديني، زيادة عن الاعتبار السياسي ؛ فإن قسطنطين الأكبر ما أسس القسطنطينية إلاّ لما رأى أن روما كانت مبنية على شكل وثني لا يتناسب مع العقائد المسيحية . ومنذ ذلك الوقت أصبحت القسطنطينية عاصمة دينية وعاصمة سياسية . واستمرت في عظمتها واعتبارها إلى مبدإ العصور الحديثة حينما فتحها العثمانيون سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م .

وقد كانت القسطنطينية طيلة صمودها للإسلام منذ سنة ١٣ هـ تمثل العدو اللدود والخصم العنيد للإسلام ما بين مدافعة ومهاجمة ؛ ولهذا فإن أي خطر يهدد هذه المدينة بالاحتلال فإن معناه انهيار خط الدفاع المسيحي وفتح الباب على مصراعيه ليكتسح المسلمون القارة الأوروبية . وإن ما قدره الغربيون هو ما تحقق فيما بعد لما افتتح العثمانيون القسطنطينية وتوغلوا في أوروبا وبلاد البلقان . إن هذا الشعور هو الذي جعل أوروبا النصرانية تصغي إلى نداء الأمبراطور البيزنطي الكسيس كومنين بعد أن طرد السلاجقة البيزنطيين من غالب آسيا الصغرى ومن شمالي بلاد الشام وبعد أن جعلت مدينة نيقية إحدى عواصم السلاجقة وهي مدينة مشرفة على بحر مرمرة من ضفته الشرقية بينما

القسطنطينية تقابلها في ضفته الغربية . فاستنجاد أمبراطور بيزنطة بالأمم المسيحية إن هو الا نداء لإنقاذ مركز المقاومة الأول المسيحي الصامد أمام القوات الإسلامية منذ عدة قرون .

* * *

ب — ادعاء زوار بيت المقدس النصارى مضايقة المسلمين لهم ، وانتهاكهم لحرمات الإماكن النصرانية المقدسة وقد ساعدهم على ذلك الادعاء حالة الاضطراب والانحلال التي استولت على الشرق الأدنى قبيل الحروب الصليبية . مما كان يضايق بعض زوار بيت المقدس ويلحقهم نوعاً من العنت والإرهاق من أناس ركبوا رؤوسهم ولم يتشبعوا بروح التسامح الإسلامي . وقد تكاثر زوار بيت المقدس في تلك الأزمنة كثرة مهولة بسبب ما شاع في أوروبا وقتئذ من الاعتقاد أن العالم مقبل على نهايته وفنائه بنهاية القرن الحادي عشر المسيحي .

* * *

ج — سوء الحياة الاجتماعية بأوروبا :

كانت الطبقة الشعبية في الدرك الأسفل من الانحطاط والفاقة والاحتياج ، وكانت تلاقي الأمرين من الضرائب والتسخير والظلم والإرهاق ، زيادة عن المجاعة التي عمت أنحاء أوروبا زمن الحروب الصليبية ، والتي انتابت هذه الطبقة البائسة أكثر من أي طبقة أخرى ، فكيف لا تلبي هذه نداء ترى فيه منقذاً لها من حالتها السيئة ومرسلاً بها إلى الانعتاق والحرية ؟

أما طبقة الأشراف والاقطاعيين فقد كانت تسودها فكرة تكوين الممالك والإمارات ، وهذا ما حدا بالكثير من هؤلاء إلى تكوين الحملات الصليبية

وتعبئة الجيوش والتوجه بها إلى المشرق حيث يتمكنون من تحقيق مطامعهم وأغراضهم .

وكان لنظام الفروسية السائد إذ ذاك أثر واضح في تشجيع غريزة حب الاطلاع والمخاطرات والمغامرات وإظهار الشجاعة والمهارة ممـا أحكمت نظامه تقاليد الفروسية وأوضاعها تلك العصور .

وإذا أضفنا إلى ذلك طمع الأرباح التجارية الذي كان يتمثل في الجمهوريات الإيطالية (جنوة — بيزة — البندقية) والذي كان له أبعد الأثر في تركيز الصليبيين ببلاد الشام أمكن لنا أن نعتبر هذا الطمع حالة مسيطرة على قسم من أهالي أوروبا كانت تدفع بهم إلى المساهمة في الحروب الصليبية .

* * *

د — الغرض الديني في الحروب الصليبية :

وليس معنى تعداد المظاهر السابقة أن الشعور الديني المحض لم يكن موجوداً بل كان كثير ممن شاركوا في الصليبيات تدفعهم عاطفة دينية جياشة . ولكن هذا لم يكن إلاّ كسائر المظاهر الأخرى يشمل طائفة من الناس ، كما شملت المظاهر الأخرى بقية الطوائف المشاركة .

* * *

هـ — موقف الفاطميين بمصر :

يذكر الكثير من المؤرخين المسلمين من القدماء والمحدثين أن من أسباب هجوم الصليبيين على الشرق الإسلامي هو مراسلة الفاطميين لأمم الفرنج وتشجيعهم على مهاجمة السلاجقة لأن هؤلاء الأخرين تغلبوا على الفاطميين

وانتزعوا منهم البلاد الشامية ، زيادة عن الخلافات المذهبية ما بين أهل السنّة والشيعة ، وكانت على أشدها في تلك الأزمنة .

ولقد كان الفاطميون يعلقون آمالاً كبيرة على مهاجمة الإفرنج للقوات السلجوقية ، فإذا استطاع الافرنج زحزحة السلاجقة عن مركزهم ، وأضعفوا من شأنهم فإن هذا يمكن الفاطميين من إرجاع الأراضي التي اغتصبها منهم السلاجقة منذ زمن ليس بالبعيد .

تكوين الامارات الصليبية

في سنة ٤٨٦ هـ — ١٠٩٣ م — قدم إلى بيت المقدس راهب فرنسي يدعى بطرس الناسك للحج والزيارة . ولعله اغتاظ لرؤية السيادة الإسلامية على فلسطين والأماكن النصرانية المقدسة ، فعزم على دعوة المسيحيين لإنقاذ الأماكن النصرانية المقدسة من أيدي المسلمين ، فكر راجعاً إلى وطنه فرنسا وعرج على روما حيث يوجد البابا أروبان الثاني .

والبابا ، باعتباره الرئيس الأعلى للمسيحيين ، كان يعمل على تنفيذ فكرة انقاذ الاماكن المقدسة النصرانية من أيدي المسلمين . وقد اتخذ البابا من بطرس الناسك أداة للدعاية ونشر الفكرة في المجامع العامة ، والمحافل الشعبية ليهيىء الأفكار ، ويثير الحماس الشعبي للعمل على إنقاذ بيت المقدس ، ، وكنيسة القيامة . وسار بطرس الناسك متجولاً في إيطاليا وفرنسا ، راكباً بغله ، معتنقاً صليباً ، مهيجاً للأفكار مثيراً للحماس .

وكان له تأثير كبير على العامة والرعاع .

* * *

أما البابا أروبان فإنه عمل على عقد المجامع الكنسية للبحث عن كيفية تنفيذ خطة غزو البلاد الشامية ، وتخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين .

واتفق مجمع كلارمون على أن يكون موعد السفر في ١٥ أغسطس ١٠٩٦ ميلادية وأن يكون اللقاء بمدينة القسطنطينية .

وتكونت كتائب صليبية شعبية على غاية من الفوضى والاضطراب . لا تخضع لقيادة منظمة ولا هي بمستوفية لشروط القتال ، وأكثرها عزل أو مشاة معهم عيالهم من نساء وأطفال . وكانت هذه الحملة الشعبية بقيادة بطرس الناسك ، فسارت في اضطراب وفوضى ، مخترقة أوروبا الوسطى تسلب وتنهب . وقد اشتبكت مع أهالي المدن التي مرت عليها ، خصوصاً في بلاد المجر ، ومات منها الكثير ثم وصلت بقايا هذه الحملة إلى القسطنطينية في يوليو ١٠٩٦ . وما أن علم السلطان السلجوقي بنزول هؤلاء الصليبيين بآسيا الصغرى حتى هب لقتالهم قرب مدينة نيقية — عاصمته — وأبادهم عن آخرهم .

* * *

وبينما كانت جيوش بطرس الناسك تلاقي حتفها قرب نيقية تحت ضربات السلطان السلجوقي ، كانت حركة التجهيز الصليبي على قدم وساق في فرنسا وإيطاليا من جانب الإقطاعيين ، والأمراء ، والأشراف ، ولما تم التجهيز وحان الموعد سارت الجيوش الصليبية على النظام التالي :

١ — حملة من جنوب فرنسا — سلكت طريقها من شمال إيطاليا ثم ألمانيا وكرواتيا وبلغاريا إلى القسطنطينية .

٢ — حملة من شمال فرنسا — سلكت طريق شمالي إيطاليا ثم سايرت ساحلها الشرقي وأبحرت من برندسي إلى ألبانيا ثم مقدونيا إلى القسطنطينية .

٣ — حملة من أعالي فرنسا — واخترقت هذه الحملة بلاد ألمانيا ثم المجر إلى القسطنطينية .

٤ — حملة من جنوب إيطاليا قام بها النرمان الذين استقروا بجنوب إيطاليا — وأبحرت هذه الحملة من مرسى برنديسي إلى سواحل ألبانيا ، ثم اخترقت ولاية مقدونية إلى القسطنطينية .

وكانت الجيوش الصليبية كلما مرت بناحية انضم إليها المتطوعون لحماية الصليب ، فتكون من مجموع هذه الجيوش الأربعة جمع عظيم العدد ، يشمل مئات الألوف ، حتى وصفه بعضهم بقوله « كانت الجيوش الصليبية عبارة عن شعب كامل يسير وقالت في شأنهم أبنة الامبراطور ألكسيس كومنين ، يخيل أن أوروبا اقتلعت من أصولها » .

* * *

ولما تكاملت هذه الجيوش في القسطنطينية ، عبرت البوسفور ومرمرة ونزلت بأرض آسيا الصغرى . ثم واصلت مسيرها واستطاعت احتلال إنطاكية بعد أن دافع عنها المسلمون دفاعاً كبيراً . وبذلك استقرت إنطاكية للصليبيين وانتصب بوهيموند النرماني أميراً عليها .

* * *

ثم توجه الصليبيون نحو بيت المقدس في شهر يناير ١٠٩٩ م ، وفي منتصف يونيو وصلوا إليها وناصبوها الحصار . فكانت مدينة القدس قد أصبحت تحت سلطة الفاطميين كما تقدم . وكان لضعف الخلافة الفاطمية ، وتضعضع معنويات جيوشها أكبر الأثر في الإسراع بسقوط بيت المقدس واحتلالها من طرف الصليبيين . وتمكن الصليبيون من اقتحام الأسوار واحتلال المدينة ، مرتكبين أشنع الأعمال وأفظعها . وقد بلغ عدد القتلى من المسلمين سبعين ألفاً ، كما أن اليهود نالهم التقتيل والإحراق والتعذيب .

وباحتلال بيت المقدس حقق الصليبيون غرضهم العام من هذه الحرب ألا وهو استخلاص بيت المقدس ، وافتكاكها من أيدي المسلمين ، وقد تكبدوا في سبيل ذلك الخسائر الباهظة من الأنفس ، بلغت عدة مئات من الألوف .

ومنذ احتلال بيت المقدس ، واستقرار الصليبيين فيها ، أخذت الإمدادات تتوارد عليها لتقوية حاميتها ، ولاتمام احتلال بقية السواحل الشامية .

وبعد أن تمكن الصليبيون من النجاح في مأموريتهم ، أمكن لهم احتلال جميع السواحل الشامية من بعد . وأصبحت لهم عدة إمارات ، هي التي عرفت بالإمارات اللاتينية أو الممالك الصليبية وهي هذه :

إمارة الرها :

واستمرت هذه الإمارة إلى أن أزالها آل زنكي (٥٣٩ هـ — ١١٤٤ م) .

إمارة أنطاكية :

وقد استمرت هذه الإمارة قائمة الذات إلى سنة (٦٦٧ هـ — ١٢٦٨ م) .

مملكة بيت المقدس :

كانت مملكة بيت المقدس هي أعظم الإمارات الصليبية . وكانت أعظمها شأناً ، وأوسعها رقعة ، تمتد من بيروت شمالاً إلى جنوب عسقلان ، وتشمل جميع الأراضي المحصورة بين نهر الأردن والبحر الأبيض المتوسط كما شمل نفوذها الضفة الشرقية للأردن والبحر الميت ووصلت إلى خليج العقبة . وكانت هذه المنطقة الواقعة شرقي الأردن تعرف بإمارة الكرك ، ومن حصونها الكرَك والشَوْبك . واستمرت مملكة بيت المقدس في اتساعها إلى أن جاء صلاح الدين الأيوبي فانكمشت على ساحل البحر في مساحة صغيرة ، متخذة من مدينة « عكا » عاصمة لها .

إمارة طرابلس :

تكونت سنة (٤٩٦ هـ — ١١٠٢ م) واستمرت إلى (٦٨٨ هـ — ١٢٨٩م) .

* * *

ولم يكن للصليبيين جهة خالية من القوات الإسلامية إلاّ الجهة الغربية (سواحل البحر الأبيض المتوسط) ولذا كان الصليبيون يتوجسون خيفة من هذا الوضع الحرج ، ويتوقعون إلقاءهم في البحر يوماً ما متى انبعثت نهضة إسلامية فتية . وكان صحيحاً ما قدره الصليبيون ، فقد استمروا متحدين للمجتمع الإسلامي ، مدخلين عليه الرعب والفزع ، منتهزين ضعفه وانحلاله، إلى أن انبعثت نهضة آل زنكي وآل أيوب فبدأ رد الفعل الإسلامي ، وبدأت كفة المسلمين تترجح على كفة الصليبيين .

آل زنكي

كانت حالة المسلمين السيئة ، من فقد الوازع الديني ، ومن التفسخ الأخلاقي ، والانحلال الاجتماعي ، تتطلب نهضة صالحة ، وقائداً منقذاً يتبعه الأمن الاجتماعي ، والضرب على أيدي الظلمة والمفسدين ثم محو هذا العار الذي التصق بالجموع الإسلامية ، عار استقرار الصليبيين بعقر ديار الإسلام .

واستمرت هذه الحالة السيئة إلى ما بعد استقرار الصليبيين ، حتى قيض الله رجالاً مصلحين عملوا على إزالة تلك العلل قدر المستطاع ، وقد بدأت هذه الحركة الإصلاحية بنهضة آل زنكي ، التي تمخضت عن نهضة آل أيوب .

عماد الدين زنكي :

وآل زنكي عائلة معروفة في التاريخ ، ومن أشهر ملوكها عماد الدين زنكي الذي كان ذا همة عالية ، لا مطمع له إلاّ تكوين مملكة إسلامية موحدة تقوى على مجابهة الصليبيين ، وإبعاد خطرهم وإزالة نفوذهم . كانت سياسته مبنية على بث الأمن والعدالة الاجتماعية داخلياً ، وعلى توسيع مملكته وتنظيمها خارجياً . ولم يمض زمن حتى أصبحت دولته تشمل الجزيرة الفراتية وأعالي الفرات وحمص وحماة وحلب وبعلبك ومعرة النعمان .

وأعظم ما سجله عماد الدين زنكي هو فتحه لمدينة الرها ، فأزال بذلك

أول إمارة صليبية من حيث تكوينها . وكان للرها ما يقرّب ما لبيت المقدس من القداسة في أخيلة العالم المسيحي .

واستمر عماد الدين زنكي في إصلاحاته وفتوحاته حتى اغتيل وانتهت حياة ذلك البطل الشهيد .

* * *

نور الدين محمود زنكي :

لما توفي عماد الدين اقتسم أكبر أبنائه وهم سيف الدين غازي ونور الدين محمود المملكة بينهما . القسم الشرقي لسيف الدين غازي ، عاصمته الموصل ، والقسم الغربي لنور الدين محمود ، عاصمته حلب . وكانت مملكة نور الدين محمود بهذا الوضع هي المتاخمة للممالك الصليبية ، مما جعل نور الدين محمود يقوم معهم بصراع عنيف دام طوال حياته ، فقدر له بذلك أن يكون من أعظم أبطال الإسلام مقاومة للصليبيين .

وكانت المملكة المصرية في هذا الزمن على غاية من الفوضى والاضطراب . وأمام هذه الحالة السيئة اتجهت إليها انظار الصليبيين ، خصوصاً مملكة بيت المقدس التي استغلت هذا الضعف والفوضى ، فتوجهت إلى مدينة عسقلان واحتلتها (٥٤٨ هـ – ١١٥٣ م) وكانت عسقلان هي آخر ما بقي للفواطم بالبلاد الشامية .

أما نور الدين محمود فقد أخذ منه هذا الأمر مأخذاً عظيماً ، سيما وهو لا يستطيع إنجاد عسقلان ما دامت مملكة دمشق تحول بينه وبينها ، ولما كانت تظهره هذه المملكة من التقرب إلى الصليبيين والخضوع لهم . لهذا وغيره عزم نور الدين محمود على فتح دمشق واحتلالها قبل أن يحتلها الصليبيون . وقد ساعده على هذا العزم وجود حزب يناصره في دمشق يتزعمه القائد أيوب

ابن شاذي . وسار نور الدين إلى دمشق ، وسرعان ما استسلمت إليه المدينة وفتحت أبوابها (في صفر ٥٤٩ هـ – ١١٥٤ م) وبذلك ضم نورالدين جميع البلاد الشامية الإسلامية .

ثم عين نور الدين محمود القائد أيوب بن شاذي حاكماً على مدينة دمشق ، وعين أخاه شيركوه حاكماً على ولايتها .

مَولــد البطــل؟

في أطراف أرمينية ؟!

هناك في أطراف أرمينية ، استقرت قبيلة الهذبانية في بلدة دوين . . .

ومن هذه القبيلة وُلد رجل اسمه «شاذي» . . .

ودفعت الحياة شاذي هذا إلى الاتصال برجل آخر يسمى «نهروز» . . .

وأراد الله لنهروز هذا أن يرتفع إلى وظيفة من أهم وظائف الدولة إذ ذاك ، هي وظيفة حاكم بغداد . . .

وكان نهروز يباشر مهام منصبه ، تحت سلطة السلاجقة بعد أن كان مربياً لأبناء مسعود السلطان السلجوقي . . .

وبلغ من مكانة نهروز لدى السلطان السلجوقي أن أقطعه قلعة تكريت . . .

فأراد نهروز أن يكرم صديقه شاذي ، فأسند حراسة قلعة تكريت إلى نجم الدين أيوب بن شاذي . . .

وقضى نجم الدين أيوب في حكم تكريت عدة سنين ، اكتسب خلالها خبرة ومراناً بشئون الإدارة ، وتمتع بمحبة الأهالي . . .

إلاّ أن الأقدار عادت ، فقطعت على الرجل هدوءه وصفاءه ، لأنها كانت تعده لشيء عظيم . . .

فساقت إليه ما يمهد لتلك العظمة . . .

ذلك أن عماد الدين زنكي ، قائد عام جيوش الموصل ، قام في نفسه يوسع ملكه ، ويمد سلطانه ، فهاجم بغـــداد ، وبذلك أصبح خارجاً على الخليفة العباسي ، والسلطان السلجوقي المفوض لحكمها من الخليفة المذكور...

إلاّ أن زنكي انهزم وأوشك أن يقضي عليه القضاء المبرم . . .

وهنا تقدم نجم الدين أيوب إليه ، وسهل له سبيل العودة ، فعـ
دجلة إلى تكريت . حيث بقي بها خمسة عشر يوماً حتى ضمدت جر
ثم عاد إلى الموصل مقر سلطانه . . .

كان هذا الجميل الذي طوق به نجم الدين ، عنق عماد الدين ، ·
أثر عميق في نفس عماد الدين . . .

ومن تلك اللحظة نشأ الود والحب بين أيوب وزنكي . . .

ولم يكن بهروز بالرجل الغافل عما يدور من حوله ، فها هو أيوب
نعمته ، يعين عدوه زنكي على الهرب ، ويبادله وداً بود . . .

لذلك اشتد العداء بين الرجلين . وجعل بهروز يتحين الفرصة
لطرد أيوب من تكريت . . .

وحانت الفرصة لنهروز . . . فبادر إلى إخراج أيوب من قلعة تكري

وكان خروج أسرة أيوب على تلك الصورة من القلعة مما أثار
الأهالي ، لما لهم عليهم من الأيادي . . .

إلا أن رجلاً واحداً كان يرحب بذلك . . . كان هذا الرجل هو أيو
لأنه كان قد صمم على ربط مستقبله بشخصية عظيمة ، هي شخصية «
الدين زنكي » . . . الذي كان إذ ذاك قد عظمت مكانته ، وأصبـ
للسلطان السلجوقي . . .

وفي ليلة رحيل نجم الدين أيوب من تكريت . . . سنة ٥٣٤ هـ — ٣٨
وُلد له ولد أسماه « يوسف » . . .

وهو الذي عُرف فيما بعد . . . باسم « صلاح الدين » . . .

قال نجم الدين : فتشاءمت به ، لفقدي بلدي ووطني . . .

فقال له بعض الناس : قد نرى ما أنت فيه من التشاؤم بهذا المولود . فما يؤمنك أن يكون هذا المولود ملكاً عظيماً له صيت ؟ ! !

في بلاط زنكي :

حملت أسرة أيوب الطفل المولود معها . . . ورحلت من تكريت ليلاً ، متجهة صوب الموصل . . .

ولاقت في رحلتها كثيراً من المتاعب . . .

إلاّ أن هذه المتاعب زالت عنها عندما رحب عماد الدين زنكي بمقدمها ، وأكرم وفادتها ، وقدر مواهب رجالها . . .

نظر عماد الدين إلى الأسرة الكريمة ، الكردية الأصل ، فرأى في نجم الدين أيوب ، رجلاً داهية ، عادلاً ، حكيماً . . .

فما أن تم لزنكي فتح بعلبك عام ١١٣٩ م حتى أسند حكمها إلى أيوب . . .

ونظر إلى أخيه « شيركوه » ، فرآه شجاعاً مقداماً مغامراً محباً للقتال ، فقلده قيادة الجيش . . .

لقد وضع زنكي بذلك النقط فوق الحروف ، وعرف مواهب الأخوين الشقيقين العظيمين . . . فاستطاع أن يستفيد منهما فائدة كبرى ، ستُعرف فيما بعد . . .

أما يوسف فلم يكن يصلح لشيء في ذلك الوقت غير اللعب الذي يحسنه الأطفال الصغار ! ! !

وفي بعلبك نشأ الطفل وترعرع ، ولعب ورتع ، في ظل والده أيوب ، حاكمها العام . . .

وليس من شك في أن ابن الحاكم ، تتاح له الفرصة كي يتعلم ويتدرب . . .

تعلم « صلاح الدين يوسف » علوم عصره على خيرما يكون التعليم . . .

وتثقف بثقافة أهل زمانه . . . وما كانت ثقافتهم نابعة إذ ذاك إلاّ من الدين . . .

حفظ يوسف القرآن ، فكان قرآنياً من صغره . . .

ودرس الفقه ، فكان مستنيراً في دنياه . . .

ودرس الحديث . . . فأنار قلبه بنور النبوة المحمدية الصافي . . .

وإلى جوار هذا كله . . . أخذ عن أبيه براعته في السياسة . . .

وأخذ عن أبيه وعمه شيركوه . . . شجاعتهما في الحروب . . .

وبذلك مهدت الأقدار لتكوين الرجل . . .

وصاغته على أمرين . . . ما اجتمعا في رجل إلاّ دفعاه نحو المجد . . .

الإيمان . . . والقتال . . .

أما الإيمان فقد ورثه عن آبائه بحكم إسلامهم . . . ونماه في تكوينه بحكم ثقافته الإسلامية . . .

وأما القتال . . . فتعلمه عن آبائه . . . وفرضته الظروف عليه فرضاً . . . بحكم الحروب الصليبية . . . التي تشتعل من حوله . . .

إلاّ أن القدَر فاجأهم مرة أخرى . . . فقتل عماد الدين زنكي . . . فاضطر أيوب إلى الرحيل إلى دمشق . . . ثم دخل في خدمة « نور الدين » سلطان حلب ورحل شيركوه مع أخيه أيوب . . .

ورحل صلاح الدين يوسف مع أبيه . . .

ودخل في خدمة نور الدين ! ! !

الامبراطورية
الفاطمية تحتضر

بينما . . .

كان صلاح الدين يترعرع بين أكتاف أبيه وعمه في بلاط نور الدين سلطان حلب . . . كانت هنا في مصر ، في القاهرة . أمبراطورية فخمة ضخمة توشك أن تذهب . . .

كانت هذه هي الدولة الفاطمية ! ! !

تبدأ قصة الدولة الفاطمية عام ٩٦٩ م . . . وتنتهي عام ١١٧١ م . . .

حين قامت دولتهم في القيروان بالمغرب . . . ثم امتدت ففتحت مصر عام ٩٦٩ م . . . في عهد المعز لدين الله أحد خلفائهم . . .الذي أرسل جوهر الصقلي ، فقام بإنشاء القاهرة . . . واستعد لاستقبال الخليفة بها . . .

وجاء المعز إلى مصر لتسلم مقاليد الأمور . . . ونقل مقر الخلافة من المنصورية إلى القاهرة في عام ١١٧٢ م .

ومنذ ذلك الحين أصبحت مصر دار الخلافة الفاطمية . . .

وامتدت رقعة أملاك الأمبراطورية الفاطمية امتداداً كبيراً . . .

حتى أنه في الشطر الأول من خلافة المستنصر – أحد خلفاء الفاطميين – كانت رقعة الدولة الفاطمية تمتد من المحيط الاطلنطي غرباً ، إلى نهر الفرات شرقاً ! ! !

وكانت الامبراطورية تقوم على أساس الانتساب إلى السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها . . . وتدين بالمذهب الشيعي . . . وتنافس بذلك خلافة الأمويين بالأندلس . . . وخلافة العباسيين ببغداد . . .

وكانت مظاهر العز والفخفخة في أخريات تلك الامبراطورية شيئاً عظيماً...

إلاّ أن ذلك كله لم يكن إلاّ في الأيام الأخيرة للامبراطورية . . .

فقد كان خلفاؤها العظام . . . أمثال المعز لدين الله . . . على تقوى وورع شديدين . . .

يدل على ذلك خطبة المعز في شيوخ كتامة قبيل رحيل جيشه إلى مصر . . . إذ قال :

« وإني لا أشغل بشيء من ملاذ الدنيا ، إلاّ ما يصون أرواحكم ، ويعمر بلادكم ، ويذل أعداءكم .

« فافعلوا يا شيوخ في خلواتكم مثل ما أفعله ، ولا تظهروا التكبر والتجبر ، فينزع الله النعمة عنكم ، وينقلها إلى غيركم » ! ! !

وقد حدث ما تنبأ به المعز لدين الله في خطبته هذه . . .

فما أن استلذ خلفاء الفاطميين الترف ، وركنوا إلى الدنيا ، وحبب إليهم سكنى القصور ، وعجائب الأمور . . . حتى انكمشت أمبراطوريتهم فبعد أن كانت تمتد من المحيط الاطلنطي إلى الفرات . . . أصبحت مصر واليمن وبعض البلاد السورية ، هي البقية الباقية من الامبراطورية الفاطمية ! ! !

واستقل محمود نور الدين بن زنكي بدمشق وحلب . . .

وقامت الحروب الصليبية ، فاحتل الصليبيون المدن الساحلية في فلسطين وسوريا . . .

وأصبحت مصر والبقية الباقية من البلاد السورية . . . محل النزاع بين نور الدين والصليبيين ! ! !

فكيف كان ذلك ؟ ! !

في عهد الخليفة العاضد . . . أحد خلفاء الفاطميين . . .

كان رئيس الوزراء رجل اسمه شاور . . .

خرج شاور هذا . . . من مصر هارباً من الخليفة . . . ملتجئاً إلى نور الدين محمود . . . فأحسن ضيافته . . . وطلب شاور منه جيشاً ليكونوا معه ليفتتح بهم مصر . . .

فأرسل معه جيشاً عليه أسد الدين شيركوه بن شاذي . . .

وبعد معركة دارت في مصر . . . انتصر أسد الدين . . . واستقر أمر شاور في رئاسة وزارة مصر ! ! !

وخرج أسد الدين وجيشه . . . فعادوا إلى الشام . . .

عود إلى غزو مصر ؟!

تجهز أسد الدين شيركوه في جيش قوي . . . وبعث معه نور الدين عدداً كبيراً من الفرسان . . .

وسار إلى مصر . . .

وكان شاور — رئيس الوزراء بمصر — لما بلغه مجيء أسد الدين إليهم . . . أرسل إلى الفرنج يستنجدهم ! ! !

فجاءوه سراعاً خوفاً أن يستولي أسد الدين على مصر . . . فلا يبقى لهم في الشام مقام ! ! !

هكذا كان الحال . . . من التضعضع ! ! !

وكانت معركة . . . بين قوات أسد الدين . . . وبين المصريين والفرنج من جهة . . .

انهزم فيها المصريون ومن معهم . . . وانتصر أسد الدين ومن معه ! ! !

صلاح الدين حاكماً للاسكندرية :

ثم سار أسد الدين إلى الاسكندرية فتسلمها بمساعدة من أهلها ! ! !

فاستناب صلاح الدين ابن أخيه عليها . . .

وعاد إلى الصعيد . . . فاستولى عليه . . .

ثم كان صلح بين الفرنج والمصريين من جانب . . . وأسد الدين من جانب . . .

رجع على أثره الفرنج . . . إلى إماراتهم . . .

وتسلم المصريون الاسكندرية . . .

وعاد أسد الدين شيركوه إلى دمشق ! ! !

هذا كله تم الاتفاق عليه . . . مع شاور — رئيس الوزراء بمصر . . .

أما الخليفة العاضد . . . فلم يكن له معه أي سلطة . . .

لأن رئيس الوزراء كان قد حجر على الخليفة . . . وحجبه عن الأمور كلها ! ! !

فتح مصر :

في سنة ٥٦٤ هـ — ١١٦٨ م . . . سار أسد الدين شيركوه بن شاذي . . . مرة أخرى إلى مصر . . .

حين سمع أن الفرنج يتجهزون للاستيلاء عليها . . .

إلاّ أن الفرنج سبقوا إلى دخولها . . . وعاثوا فيها فساداً . . .

وأمر شاور — رئيس الوزراء — بإحراق مدينة الفسطاط . . . وأمر أهلها بالانتقال منها إلى القاهرة . . . خوفاً أن يملكها الفرنج . . . فبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوماً . . .

ولكن أين السيد الخليفة في الأحداث ؟ !

أرسل الخليفة العاضد إلى نور الدين بدمشق يستغيثه . . . ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع الفرنج ! ! !

وأرسل في الكتب شعور النساء ، وقال : هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك ، لتنقذهن من الفرنج ! ! !

فشرع نور الدين في تسيير الجيوش . . .

وأما الفرنج فإنهم اشتدوا في حصار القاهرة . . .

والسيد — شاور — هو المتولي للأمور ، فما استطاع إلاّ أن يزيدها خبالاً ! ! !

واستدعى نور الدين ، قائده أسد الدين ، وأرسله على رأس جيش عظيم . . . إلى مصر . . . لينجد أهلها . . .

وكان صلاح الدين . . . يوسف بن أيوب . . . من قادة وفرسان هذا الجيش . . .

جاء صلاح الدين إلى مصر . . . على كره منه . . .

لم يكن يعلم . . . أن مسيره إلى مصر . . . هذه المرة . . .

كان مقدمة . . . لظهور . . . البطل الخالد . . . صلاح الدين ! ! !

والنهاية الطبيعية لأمبراطورية . . . انتشر فيها الفساد . . . ودبت فيها الفوضى . . .

فكان قانوناً طبيعياً . . . أن تنهار . . .

أن يقوم على رأسها . . . رجل عظيم . . . مثل صلاح الدين ! ! !

صلاح الدين
في مصر

سار . . . أسد الدين شيركوه . . . إلى مصر . . . فلما قاربها رحل الفرنج إلى بلادهم . . .

وسمع نور الدين بعودهم فسره ذلك . . . فإنه كان فتحاً جديداً لمصر . . . وحفظاً لبلاد الشام وغيرها . . .

ووصل أسد الدين إلى القاهرة . . . واجتمع بالخليفة العاضد . . .

فامتعض شاور — رئيس الوزراء — من هذا التقارب . . . وبدأ يدبر المؤامرات . . .

إلاّ أن صلاح الدين وغيره من قواد الحملة كانوا أسبق منه . . .

فاغتالوا شاور . . . وأرسلوا رأسه إلى الخليفة العاضد . . .

فقطعوا بذلك دابر الفتنة . . .

أسد الدين . . . رئيساً للوزارة المصرية ؟!

وقصد أسد الدين شيركوه قصر الخليفة العاضد . . .

فخلع عليه خلعة الوزارة . . . ولقب الملك المنصور أمير الجيوش ...

وانتقل إلى مقر رئاسة الوزراء ... ثم أتاه أجله ... وكانت مدة ولايته شهرين وخمسة أيام ! ! !

صلاح الدين ... رئيساً للوزارة المصرية ؟!

أرسل الخليفة العاضد ... إلى صلاح الدين ... أحضره عنده ... وخلع عليه ... وولاّه الوزارة بعد عمه أسد الدين ...

فأصبح صلاح الدين رئيساً للوزارة المصرية ... في سنة ١١٦٩ م ... وهو في الثانية والثلاثين من عمره ...

ومنذ ذلك التاريخ أخذ يوطد مركزه في مصر ... ويعمل على تأسيس دولة تحل محل الدولة الفاطمية المنحلة ! ! !

صلاح الدين ... يعيد توزيع الأرض الزراعية ؟!

واستمال صلاح الدين قلوب الناس ... وبذل لهم الأموال ... فمالوا إليه وأحبوه ...

وضعف أمر الخليفة العاضد ...

وقلل صلاح الدين من النظام الإقطاعي الذي ساد طريقة امتلاك الأراضي في العهد الفاطمي ...

وحطم بذلك استقلال أمراء الإقطاعات ، وقوى الحكومة المركزية ، وكان لهذا أكبر الأثر في نشاط الحالة الاقتصادية ...

مؤامرة لقلب نظام الحكم ؟!

كان بقصر الخليفة العاضد ... مؤتمن الخلافة « نجاح » ... وهو خصي كان بقصر العاضد ، إليه الحكم فيه ، والتقدم على جميع من يحويه ...

فاتفق هو وجماعة من المصريين على مكاتبة الفرنج واستدعائهم إلى البلاد ، والتقوي بهم على صلاح الدين ومن معه من قوات ...

وكان هدف مؤتمن الخلافة أن يتحرك الفرنج إلى مصر ... فإذا وصلوا

إليها خرج صلاح الدين في الجيش إلى قتالهم . . . فيثور مؤتمن الخلافة بمن معه من المصريين . . . ثم يخرجون يتبعون صلاح الدين . . . فيأتونه من وراء ظهره والفرنج من بين يديه . . .

وعلم صلاح الدين بالمؤامرة . . . فأرسل إلى مؤتمن الخلافة جماعة مسلحة . . . فأخذوه وقتلوه . . . وأتوا برأسه ! ! !

حملة تطهير . . . داخل قصر الخليفة ؟!

وعزل صلاح الدين جميع الخدم . . . الذين يتولون أمر قصر الخلافة . . . واستعمل على الجميع بهاء الدين قراقوش . . .

وكان لا يجري في القصر . . . صغير ولا كبير إلاّ بأمره ! ! !

صلاح الدين . . . يقضي على ثورة أخرى ؟!

وغضب السودانيون لقتل مؤتمن الخلافة للجنسية ، ولأنه كان يتعصب لهم . . .

فحشدوا وجمعوا ، فزادت عدتهم على خمسين ألفاً . . .

وقصدوا حرب جيش صلاح الدين . . .

وكانت معركة حامية بينهم وبين صلاح الدين . . .

فهزمهم صلاح الدين شر هزيمة . . . وقضى عليهم قضاء تاماً . . .

وطاردهم شمس الدولة . . . أخو صلاح الدين الأكبر . . . فأبادهم بالسيف ! ! !

عبقرية صلاح الدين ؟!

في سنة ٥٦٥ هـ ــ ١١٦٩ م . . . نزل الفرنج على مدينة دمياط وحاصروها . . .

فأرسل إليها صلاح الدين جيشاً من طريق النيل . . .

وأرسل إلى نور الدين يقول : « **إني إن تأخرت عن دمياط ملكها الفرنج.. وإن سرت إليها ، خرج المصريون عن طاعتي ، وساروا في أثري ، والفرنج أمامي . . .** »

فسير نور الدين الجيوش إليه أرسالاً يتلو بعضها بعضاً . . .

ثم سار نور الدين بنفسه إلى بلاد الفرنج الشامية فأغار عليها واستباحها . . . لخلوها ممن يدافع عنها . . .

فلما رأى الفرنج تتابع الجيوش إلى مصر . . . ودخول نور الدين إلى بلادهم وتخريبها . . . رجعوا خائبين . . . ووجدوا بلادهم خراباً . . .

وكانت مدة حصارهم لدمياط خمسين يوماً . . .

وكانت عبقرية لصلاح الدين ! ! !

تغيير نظام القضاء ؟!

وفي سنة ٥٦٦ هـ – ١١٧٠ م . . . عزل صلاح الدين قضـــاة مصر . . . لأنهم كانوا شيعة . . .

واستبدلهم بقضاة شافعية . . .

فكان هذا ثورة في القضاء المصري . . . زلزلت أوضاعاً مستقرة ! ! !

الخليفة يستقبل ... والد صلاح الدين ؟!

توطدت سلطة صلاح الدين في مصر . . .

فطلب من نور الدين أن يرسل إليه أباه وأقرباءه ، فلبى طلبه . . .

قالوا : « **استأذن الأمير نجم الدين أيوب ، نور الدين في قصده ولده صلاح الدين ، والخروج من دمشق إلى مصر بأهله وجماعته** » . . .

وخرج الخليفة الفاطمي ... ومعه صلاح الدين رئيس الوزراء ... في موكب حافل ، لاستقبال نجم الدين وباقي الأسرة ...

ونزلوا ضيوفاً في قصور الخلافة الخلاّبة ...

ووزع على أهله بعضاً من كنوز الفاطميين ، وأسكنهم في قصورهم ...

رغم اكتفائه بالدار التي كان يسكنها وتسمى « دار الوزارة » ...

إقامة الخطبة العباسية ؟!

في سنة ٥٦٧ هـ – ١١٧١ م ... قُطعت الخطبة في صلاة الجمعة ... للخليفة العاضد ...

وكانت القصة أن صلاح الدين لما ثبت قدمه بمصر ... وضعف أمر الخليفة العاضد بها ...

كتب إليه نور الدين زنكي ... يأمره بقطع الخطبة للعاضد ... وإقامة الخطبة للخليفة العباسي ...

فنفذ صلاح الدين ذلك ... في جميع مساجد مصر ...

وكان العاضد قد اشتد مرضه ... فلم يعلمه أحد من أهله وأصحابه بقطع الخطبة ... إشفاقاً عليه ! ! !

وفاة الخليفة العاضد ؟!

ثم توفي الخليفة ... ولم يعلم بقطع الخطبة ...

واستولى صلاح الدين ... على قصر الخلافة، وعلى جميع ما فيه ...

وأخرج منه أهل العاضد . . . إلى دار أفردها لهم . . . وأجرى عليهم النفقات . . . عوضاً عما فاتهم من الخلافة ! ! !

مصادرة أملاك الخليفة ؟!

وزع صلاح الدين القصر الشمالي بين الأمراء فسكنوه . . .

وأسكن أباه نجم الدين أيوب ، في قصر عظيم . . .

وأسكن أكثر الأمراء في دور من كان ينتمي إلى الفاطميين . . .

وهكذا سقطت الدولة الفاطمية ! ! !

وكانت مدة ملك الفاطميين مائتين وثمانين سنة . . .

ثم كان من عبقرية صلاح الدين . . . في نفس الوقت الذي انتهت فيه دولة الفاطميين . . . أن أسقط عن أهل مصر المكوس والضرائب . . . وأذاع منشوراً بذلك على الناس ! ! !

المؤامرة الكبرى ... لقلب نظام الحكم ؟!

تعتبر أعنف وأخطر حركة واجهت صلاح الدين . . . هي هذه الحركة . . . وقصتها . . .

إن جماعة من الشيعة . . . وجماعة من جند المصريين . . . والسودانيين ... وجماعة من حاشية قصر الخليفة . . .

ووافقهم جماعة من أمراء جيش صلاح الدين . . .

اتفق رأيهم جميعاً على استدعاء الفرنج من صقلية وساحل الشام . . . إلى مصر . . .

فإن خرج صلاح الدين إليهم ... ثاروا هم في القاهرة والفسطاط وأعادوا الدولة الفاطمية ...

وأدخلوا معهم في المؤامرة ... زين الدين علي نجا ... الواعظ والقاضي المعروف ...

فأعلم ابن نجا صلاح الدين بالمؤامرة ... وكشف له عنها ...

فأمره بملازمتهم ومخالطتهم ومواطأتهم على ما يريدون ... وتعريفه ما يتجدد أولاً بأول ! ! !

فقبض صلاح الدين على رؤوس المتآمرين ... وأقروا بجريمتهم ...

فأمر بقتلهم صلباً ! ! !

وقُتلوا أجمعين ! ! !

وفاة نور الدين ؟!

وفي سنة ٥٦٩ هـ — ١١٧٣ م ... توفي نور الدين محمود زنكي ... صاحب الشام ... وديار الجزيرة ... ومصر ...

ودفن بقلعة دمشق .

ولما توفي نور الدين ... قام ابنه الملك الصالح إسماعيل بالملك بعده ... وكان عمره إحدى عشرة سنة ! ! !

السلطان صلاح الدين

حاول ورثة . . .

نور الدين . . . محاربة صلاح الدين . . . إلاّ أنه انتصر عليهم . . . في معركة بالشام . . .

فصالحوه . . . على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام . . . ولهم ما بأيديهم منها . . .

وانتظم الصلح . . . ورحل عن حلب ووصل إلى حماة . . . ووصلت إليه بها خلع الخليفة مع رسوله . . .

وأصبح من ذلك اليوم يسمى . . . السلطان صلاح الدين ! ! !

وهكذا حصل صلاح الدين على لقب « سلطان » من الخليفة العباسي . . .

ويعتبر هذا إعلاناً لاستقلال صلاح الدين . . . وأصبح له بذلك حق شرعي في حكم مصر . . .

ولم يعد يحكمها نيابة عن أسرة نور الدين ! ! !

محاولة ثانية ... لاغتيال صلاح الدين ؟!

أثناء إقامة السلطان صلاح الدين بالشام . . .

وشروعه في فتح حلب . . .

أرسل الحلبيون إلى سنان (شيخ الجبل) فأرسل جماعة لقتل السلطان ! ! !

فدخل جماعة منهم في جيشه في زي الجند ، فقاتلوا أشد القتال حتى اختلطوا بهم . . .

فوجدوا ذات يوم فرصة والسلطان ظاهر للناس . . .

فحمل عليه واحد منهم . . . فضربه بسكين على رأسه . . .

فإذا هو محترس منهم باللأمة . . . فسلمه الله ، غير أن السكين مرت على خده فجرحته جرحاً هيناً . . .

فلولا أن المغفر الزرد تحت القلنسوة لقتله ! ! !

الملك إسماعيل نور الدين ... يستسلم لصلاح الدين ؟!

هاجم صلاح الدين حلب . . . وبها الملك الصالح ومن معه من الجنود . . .

فاستسلم نور الدين . . . ووقع صلحاً مع صلاح الدين . . .

ان صلاح الدين لم يقصد إذلال آل نور الدين . . . وإنما أراد أن يستنقذ بلادهم من الوقوع في أيدي الصليبيين نتيجة خلافاتهم ! ! !

صلاح الدين يدمر ... بلاد الحشاشين ؟!

في سنة ٥٧٢ هـ — ١١٧٦ م . . .

لما رحل صلاح الدين من حلب . . . توجه إلى بلاد الإسماعيلية . . . ليقاتلهم بما فعلوه من الوثوب عليه ، محاولة قتله ! ! !

فنهب بلدهم ، وخربه ، وأحرقه ، وحاصر قلعة مصيات ، وهي أعظم حصونهم ، وأحصن قلاعهم . . .

فنصب عليها المنجنيقات ، وضيق على من بها ، ولم يزل كذلك . . .

فأرسل سنان مقدم الإسماعيلية إلى شهاب الدين الحارمي ، صاحب حماة ، وهو خال صلاح الدين ، يسأله أن يدخل بينهم ويصلح الحال ، وليشفع فيهم . . .

ويقول له : إن لم تفعل قتلناك وجميع أهل صلاح الدين ! ! !

فشفع فيهم ، وسأل الصفح عنهم . . .

فأجابه إلى ذلك ، وصالحهم ، ورحل عنهم ! ! !

عودة البطل ... إلى مصر ؟!

وكان جيشه قد ملّوا ، وامتلأت أيديهم من الغنائم ، فطلبوا العود إلى بلادهم للاستراحة . . .

فأذن لهم . . .

وسار هو إلى مصر مع الجيش المصري . . . بعد أن اطمأن على الأمور في الشام . . .

بناء سور الفسطاط ؟!

وأمر ببناء سور على الفسطاط ، والقاهرة التي على جبل المقطم . . .

ولم يزل العمل فيه . . . إلى أن مات صلاح الدين . . .

ولا تزال بقايا هذا السور قائمة في جهات مختلفة ، أظهرها الفسطاط !!!

صلاح الدين يتزوج ... أرملة نور الدين ؟!

وفي نفس السنة . . . تزوج السلطان الملك الناصر . . . بالسيدة خاتون . . . وكانت زوجة نور الدين محمود . . .

وكانت مقيمة بالقلعة . . .

وبات الناصر عندها ليلتين . . .

ثم سافر إلى مصر . . . واستقبله أخوه ونائبه عليها . . . الملك العادل سيف الدين ! ! !

ثم ركب الناصر إلى الإسكندرية . . . وأمر بتجديد الأسطول ، وإصلاح مراكبه وسفنه . . . وشحنه بالمقاتلة ، وأمرهم بغزو جزائر البحر ! ! !

هكذا صلاح الدين . . . حركة دائمة هاهنا وهناك ! ! !

بناء قلعة الجبل ؟!

في سنة ٥٧٣ هـ — ١١٧٧ م . . .
أمر الملك الناصر ، ببناء قلعة الجبل . . .
وإحاطة السور على القاهرة والفسطاط . . .
فأنشأ قلعة للملك ، لم يكن في الديار المصرية مثلها ولا على شكلها ! ! !
وولى عمارة ذلك الأمير بهاء الدين قراقوش . . .

وكانت القلاع في أيام صلاح الدين منتشرة في كل مدن الشام ، حتى في إمارات الفرنجة . . .

وإنما بناها صلاح الدين لتكون مقراً لحكومته ، ومعقلاً لجيشه ، وحصناً يمكنه من الإشراف على حاضرة دولته ، ويحميه من الثورات الداخلية ، ونقطة دفاعية يصد منها غارات المغيرين على مصر من الفرنجة . . .

وقد عهد صلاح الدين ببناء تلك القلعة إلى وزيره بهاء الدين قراقوش . . .

ولكن صلاح الدين توفي ولم يكن قد تم من بناء القلعة إلاّ هيكلها . . .

وأتم بناء القلعة السلطان الكامل سنة ٦٠٤ هـ . . . وانتقل من دار الوزارة إليها . . .

وصارت القلعة منذ أن تم بناؤها مقراً للدواوين السلطانية ودور الحكومة ...

وكان بها دار الوزارة ، وديوان الإنشاء ، وديوان الجيش ، ودار النيابة ، وبيت المال ، وخزانة السلطان الخاصة ، والدور السلطانية ، والجب ، والأبراج التي كان يجلس فيها الأمراء والمماليك الخارجون على السلطان . . .

معز أمير المؤمنين ؟!

وفي سنة ٥٧٤ هـ — ١١٧٨ م . . .

وصلت خلع الخليفة العباسي ، إلى الملك صلاح الدين . . . وهو بدمشق...

وزيد في ألقابه « معز أمير المؤمنين » ! ! !

معركة مرج العيون ؟!

استهلت سنة ٥٧٥ هـ — ١١٧٩ م . . .

والسلطان صلاح الدين نازل بجيشه ببانياس ....

ثم قصده الفرنج بجمعهم ، فنهض إليهم . . .

فما هو إلاّ أن التقى الفريقان . . .

فولت ألوية الصليبيين . . . وقتل منهم خلق كثير ، وأسر من ملوكهم جماعة كبيرة . . .

منهم قائد الداوية . . .

ومقدم الاسبتارية . . .

وهم فرسان المعبد والكنيسة الذين تخصصوا في ذلك الوقت في محاربة المسلمين . . .

ومنهم صاحب الرملة . وصاحب طبرية وقسطلان ويافا . . . وآخرون من ملوكهم . . . وخلق من شجعانهم وأبطالهم . . .

ومن فرسان القدس تقريباً من ثلاثمائة أسير من أشرافهم . .

قالوا : فاستعرضهم السلطان في الليل حتى أضاء الفجر ، وصلى يومئذ الصبح بوضوء العشاء . . .

انتصار الأسطول ؟!

واتفق أنه في اليوم الذي ظفر فيه السلطان بالفرنج بمرج العيون . . .

ظهر أسطول المسلمين على الفرنج في البحر . . .

فغنموا ألف رأس من الأسرى ، وعاد إلى الساحل مؤيد منصوراً . . .

وقد امتدح الشعراء السلطان في هذه الغزوة بمدائح كثيرة . . .

وكتب بذلك إلى بغداد . . . فدقت البشائر بها فرحاً وسروراً . . .

ثمانمائة فارس يغلبون عشرين ألفاً ؟!

وكان الملك المظفر تقي الدين عمر . . . غائباً عن هذه الموقعة ، مشتغلاً بما هو أعظم منها . . .

وذلك أن ملك الروم بعث يطلب حصن رعنان ، وزعم أن نور الدين اغتصبه منه . . . فلم يجبه إلى ذلك السلطان صلاح الدين . . .

فبعث صاحب الروم عشرين ألف مقاتل يحاصرونه . . . فأرسل السلطان . . . تقي الدين عمر . . . في ثمانمائة فارس . . .

فالتقوا معهم فهزموهم بإذن الله ! ! !

ويقال انه هزمهم . . . يوم هزم السلطان الفرنج بمرج العيون ! ! !

تخريب حصن الأحزان ؟!

ثم ركب السلطان إلى الحصن الذي كانت الفرنج . . . قد بنوه في العام الماضي . . . وجعلوه لهم عيناً . . .

فحاصره . . . ونقبه من جميع جهاته . . . وألقى فيه النيران . . . وخربه إلى الأساس . . . وغنم جميع ما فيه . . .

فكان فيه مائة ألف قطعة من السلاح . . .

وأخذ منه سبعمائة أسير . . .

ثم عاد إلى دمشق مؤيداً منصوراً ! ! !

الصليبيون يطلبون الهدنة من صلاح الدين ؟!

في سنة ٥٧٦ هـ — ١١٨٠ م . . .

هادن السلطان صلاح الدين الفرنج . . .

وكرّ على بلاد الأرمن ، فأقام عليها ، وفتح بعض حصونها . . .

ثم عاد منصوراً فدخل حماة . . .

ثم سار السلطان إلى مصر . . . لينظر في أحوالها ، ويصوم بها رمضان . . .

ومن عزمه أن يحج عامه ذلك ! ! !

البطل يستمع إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ! !

وفي سنة ٥٧٧ هـ — ١١٨١ م . . .

كان صلاح الدين مقيماً بالقاهرة . . . مواظباً على سماع الحديث . . .

وتوجه إلى الإسكندرية، لينظر ما أمر به من تحصين سورها ، وعمارة أبراجها . . .

وسمع بها موطأ مالك . على الشيخ أبي طاهر بن عوف . . .

وسمع معه العماد الكاتب . . .

وأرسل القاضي الفاضل رسالة إلى السلطان يهنئه بهذا السماع . . .

ثم توفي الملك الصالح بن نور الدين بقلعة حلب . . . ودفن بها . . .

. عودة البطل إلى الشام ؟!

ولما سمع صلاح الدين باختلال الأمور . . . ركب من الديار المصرية في جيشه . . . فسار حتى أتى الفرات . . . واستحوذ على بلاد الجزيرة كلها . . . ثم جاء إلى حلب فتسلمها من عماد الدين زنكي لضعفه عن ممانعتها . . .

وفي هذه السنة عزم البرنس صاحب الكرك على قصد تيماء من أرض الحجاز ، ليتوصل منها إلى المدينة المنورة . . .

فجهز له صلاح الدين سرية من دمشق تكون حاجزة بينه وبين الحجاز ، فصده ذلك عن قصده . . .

وفيها غدرت الفرنج . . . ونقضت عهودها . . . وقطعوا السبل على المسلمين براً وبحراً وسراً وجهراً ! ! !

ثم عاد البطل إلى مصر ! ! !

صلاح الدين يغادر مصر ؟!

وفي سنة ٥٧٨ هـ — ١١٨٢ م . . .

سار صلاح الدين عن مصر إلى الشام . . .

فلم يعد إليها إلى أن مات . . . مع طول المدة ! ! !

ثم سار . . . فأتى دمشق . . .

وفي هذه السنة . . . سير صلاح الدين أخاه سيف الإسلام . . . إلى بلاد اليمن . . . وأمره بتملكها ، وقطع الفتن بها ، وفوض أمرها إليه . . .

فاستولى على جميع بلاد اليمن . . . وسادها الاستقرار ! ! !

صلاح الدين يحاصر بيروت والأسطول المصري يضربها بحراً ؟!

ثم أنه سار عن دمشق إلى بيروت . . .

وكان قد أمر الأسطول المصري بالمجيء في البحر إليها ، فساروا ونازلوها وأغاروا عليها . . .

وسار صلاح الدين فوافاهم . . . وحصرها عدة أيام . . .

مواصلة سياسة توحيد العالم الإسلامي ؟!

وفي هذه السنة عبر صلاح الدين الفرات . . . إلى ديار الجزيرة . . . قادماً من بيروت . . .

فاستولى عليها بعد معارك طاحنة . . .

ثم واصل معاركه وهدفه توحيد العالم الإسلامي تحت راية واحدة . . .

صلاح الدين يحاصر الموصل ؟!

ثم سار صلاح الدين إلى الموصل . . .

فحاصرها حصاراً طويلاً ... ثم سار منها إلى سنجار . . . فاستولى عليها ...

إنها حلقة جديدة من حلقات توحيد العالم الإسلامي ! ! !

الأسطول المصري يحطم أسطول الصليبيين ؟!

وفي هذه السنة عمل البرنس صاحب الكرك أسطولاً . . .

وسيره في البحر الإحمر . . .

وفرقه فرقتين . . . فرقة قامت على حصن إيلات يحصرونه . . .

والفرقة الثانية سارت نحو عيذاب ، وأفسدوا في السواحل . . . واستولوا على ما وجدوا من المراكب الإسلامية . . .

وكان بمصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب ينوب عن أخيه صلاح الدين ...

فعمر أسطولاً وسيره وفيه جمع كثير من المسلمين . . .

وقائدهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب . . . وهو قائد الأسطول الأعلى . . .

فسار لؤلؤ مجداً في طلبهم . . .

فابتدأ بالذين على أيلة (خليج العقبة) فانقض عليهم انقضاض العقاب على صيده . . . فقتل بعضهم ، وأسر الباقي . . .

وسار من وقته . . . يقص أثر الذين قصدوا عيذاب . . . وكانوا عازمين على الدخول إلى الحجاز ، مكة والمدينة . . . وأخذ الحجاج ومنعهم عن البيت الحرام . . . والدخول بعد ذلك إلى اليمن . . .

فلما وصل لؤلؤ إلى عيذاب ولم يرهم ، سار يقفو أثرهم ، فبلغ رابغ . . . فأدركهم بساحل الجوزاء ، فأوقع بهم هناك . . .

فلما شاهدوا الهلاك ... خرجوا إلى البر ، واعتصموا ببعض تلك الشعاب . . .

فنزل لؤلؤ من مراكبه إليهم . . . وقاتلهم أشد قتال . . .

فظفر بهم ، وقتل أكثرهم . . . وأخذ الباقين أسرى . . .

وعاد بالباقين إلى مصر . . . فقتلوا جميعهم ! ! !

صلاح الدين يستولي على حلب؟!

وتألق كوكب صلاح الدين . . . وأصبحت البلاد تتهاوى في يمينه كيف يشاء . . .

فاستولى على آمد . . .

ثم سار إلى الشام . . . فجعل يستولي على ما شاء من البلاد والحصون . . .

ثم استولى على حلب . . .

وتسلمها صلاح الدين . . . واستقر ملكه باستلامها . . .

وبينما هو يحتفل باستلامها . . .

جاء إنسان فأسرّ إلى صلاح الدين بموت أخيه . . .

فلم يظهر هلعاً ولا جزعاً ، وأمر بتجهيزه سراً . . . ولم يعلم من معه في الحفل . . .

واحتمل الحزن وحده . . . لئلاّ يتنكد ما هم فيه ! ! !

وكان هذا من الصبر الجميل . . .

وتلك خصيصة من خصائص صلاح الدين الإنسان ! ! !

وأقام صلاح الدين بحلب إلى أن فرغ من تقرير قواعدها وأحوالها . . .
وأرسل منها فجمع العساكر من جميع بلاده . . .

وهنا دقت الساعة . . . وأزفت الآزفة . . . وتم لصلاح الدين توحيد العالم الإسلامي . . . وتجهز لغزو الصليبيين ! ! !

البطل يتحدى الصليبيين ؟!

لما فرغ صلاح الدين من أمر حلب . . . سار إلى دمشق . . . وتجهز للعدو . . . ومعه جيوش الشام ، والجزيرة ، وديار بكر . . .

وسار إلى بلاد الفرنج . . . فعبر نهر الأردن . . . فرأى أهل تلك النواحي قد فارقوها خوفاً ! ! !

فقصد بيسان فأحرقها واستولى عليها . . .

فاجتمع الفرنج وجاؤا إلى قبالته . . .

فحين رأوا كثرة جنوده ، لم يقدموا عليه . . .

فأحاط بهم . . . وجنود الإسلام ترميهم بالسهام . . .

فلما رأى الفرنج ذلك ، لم يطمعوا أنفسهم في غير السلامة . . .

وأغار المسلمون على تلك الأعمال يميناً وشمالاً . . .

فلما كثرت الغنائم معهم . . . رأوا العود إلى بلادهم . . . فعادوا على عزم الغزو ! ! !

تكتيك رائع للبطل صلاح الدين ؟!

لما عاد صلاح الدين والمسلمون من غزوة بيسان . . . تجهزوا لغزو الكرك . . .

فسار إليه في جيشه . . .

وكتب إلى أخيه العادل أيوب . . . وهو نائبه بمصر . . . يأمره بالخروج بجميع العساكر إلى الكرك . . .

فوصل صلاح الدين إلى الكرك . . .

ووافاه أخوه العادل في الجيش المصري . . .

وكثر جمعه ، وتمكن من حصاره . . . وتحكم عليه في القتال ، ونصب عليه سبع منجنيقات ، لا تزال ترمي بالحجارة ليلاً ونهاراً . . .

وكان صلاح الدين يظن أن الفرنج لا يمكنونه من حصار الكرك . . .

فلم يستصحب معه من آلات الحصار ، ما يكفي لمثل ذلك الحصن العظيم ، والمعقل المنيع . . .

فرحل عنه بعد أيام ! ! !

معركة فاصلة ؟!

وفي سنة ٥٨٠ هـ — ١١٨٤ م . . .

سار صلاح الدين من دمشق . . . يريد الغزو ، وجمع عساكره ، فأتته من كل ناحية . . .

وكان قد أرسل إلى العساكر الحلبية والجزيرية والمصرية والشامية . . . أن يقدموا عليه لقتال الفرنج . . .

فأخذ الجميع . . . وسار نحو الكرك ، فأحدقوا بها . . .

وركب عليها المنجنيقات . . . وأخذ في حصارها . . . وذلك أنه رأى أن فتحها أنفع للمسلمين من غيرها ، فإن أهلها يقطعون الطريق على الحجاج . . .

فبينما هو كذلك ، إذ بلغه أن الفرنج قد اجتمعوا له . . . وكلهم فارسهم وراجلهم . . . ليمنعوا منه الكرك . . .

فانشمر عنها . . . وقصدهم . . .

فنزل تجاههم . . . فانهزمت الفرنج . . . قاصدين الكرك . . .

فأرسل وراءهم من قتل منهم مقتلة عظيمة . . .

وأمر السلطان بالإغارة على السواحل لخلوها من المقاتلة . . . فاستولى عليها وعلى ما فيها . . . ثم عاد السلطان إلى دمشق . . . وأمر ابن أخيه . . . عمر الملك المظفر . . . أن يعود إلى مصر ! ! !

وأقام هو بدمشق ليؤدي فرض الصيام . . .

وقدم على السلطان خلع الخليفة فلبسها ! ! !

مرض البطل ؟!

وفي سنة ٥٨١ هـ — ١١٨٥ م . . .

مرض البطل . . . وطال مرضه . . .

فكان يتجلد ولا يظهر شيئاً من الألم . . .

حتى قوي عليه الأمر وتزايد الحال . . .

وخاف الناس عليه . . . وأرجف الكفرة بموته . . .

ثم نذر لئن شفاه الله من مرضه هذا . . . ليصرفن همته كلها إلى قتال الفرنج . . . ولا يقاتل بعد ذلك مسلماً . . . وليجعل أكبر همه فتح بيت المقدس . . . ولو صرف في سبيل الله جميع ما يملكه من الأموال والذخائر . . . وليقتلن البرنس صاحب الكرك بيده . . . لأنه نقض العهد . . . وتنقص الرسول صلى الله عليه وسلم . . .

وذلك أنه أخذ قافلة ذاهبة من مصر إلى الشام . . . فأخذ أموالهم وضرب رقابهم . . . وهو يقول : أين محمدكم ؟ . . دعوه ينصركم ؟ ! . .

وكان هذا النذر بإشارة القاضي الفاضل . . .

وهو أرشده إليه وحثه عليه ، حتّى عقده مع الله عز وجل . . .

فعند ذلك شفاه الله وعافاه . . . من ذلك المرض الذي كان فيه ، كفارة لذنوبه !

وجاءت البشارات بذلك من كل ناحية . . . فدقت البشائر . . . وزينت البلاد . . .

ثُم ركب السلطان . . . فدخل دمشق . . . وقد تكاملت عافيته . . .
وقد كان يوماً مشهوداً ! ! !

غدر البرنس أرناط ؟!

كان البرنس أرناط صاحب الكرك . . . من أعظم الفرنج وأخبثهم ، وأشدهم عداوة للمسلمين ، وأعظمهم ضرراً عليهم . . .

فلما رأى صلاح الدين ذلك منه ، قصده بالحصر مرة بعد مرة ، وبالغارة على بلاده كرة بعد كرة . . .

فذل وخضع . . . وطلب الصلح من صلاح الدين . . .

فأجابه إلى ذلك ، وهادنه وتحالفا . . .

وترددت القوافل من الشام إلى مصر . . . ومن مصر إلى الشام . . .

فلما كان هذه السنة ٥٨٢ هـ – ١١٨٦ م . . . اجتاز به قافلة عظيمة ، غزيرة الأموال ، كثيرة الرجال ، ومعها جماعة صالحة من الجند . . .

فغدر اللعين بهم ، وأخذهم عن آخرهم . . . وغنم أموالهم وسلاحهم . . . وأودع السجون من أسر منهم ! ! !

فأرسل إليه صلاح الدين يلومه ، ويتوعده إن لم تطلق الأسرى والأموال . . .

فلم يجب إلى ذلك ، وأصر على الامتناع . . .

فنذر صلاح الدين نذراً . . . أن يقتله إن ظفر به ! ! !

ريموند ينضم إلى صلاح الدين ؟!

كان صاحب طرابلس . . . واسمه ريموند . . .

قد تزوج صاحبة طبرية . . . وانتقل إليها . . . وأقام عندها بطبرية . . .

ومات ملك بيت المقدس بالشام . . . وكان مجذوماً . . . وأوصى بالملك إلى ابن أخت له . . .

وكان صغيراً فكفله ريموند . . . وقام بسياسة الملك وتدبيره . . .

فطمع في الملك بسبب هذا الصغير . . . فاتفق أن الصغير توفي . . .

فانتقل الملك إلى أمه . . .

فبطل ما كان ريموند يحدث به نفسه ! ! !

ثم إن هذه الملكة أحبت رجلاً من الفرنج . . . الذين قدموا الشام اسمه جاي دي لوزيجنان . . . فتزوجته . . .

ونقلت الملك إليه . . . وجعل التاج على رأسه . . .

وأحضرت البطرك والقسوس والرهبان والاسبتارية والداوية والبارونية . . . وأعلمتهم أنها قد ردت الملك إليه . . .

وأشهدتهم عليها بذلك . . .

فأطاعوا . . . ودانوا له . . .

فعظم ذلك على ريموند . . . وسقط في يديه . . . وطولب بحساب ما جمع من الأموال مدة ولايته للصبي . . .

فادعى أنه أنفقه عليه . . . وزاده ذلك نفوراً . . . وجاهر بالمشاققة والمباينة . . .

وراسل صلاح الدين . . .

وانتمى إليه واعتضد به . . . وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج . . .

ففرح صلاح الدين . . . والمسلمون بذلك . . . ووعده النصرة ، والسعي له في كل ما يريد . . .

وضمن له أنه يجعله ملكاً مستقلاً للفرنج قاطبة ! ! !

وكان عنده جماعة من فرسان ريموند فأطلقهم . . . فحل ذلك عنده أعظم محل ! ! !

وأظهر طاعة صلاح الدين . . .

ووافقه على ما فعل جماعة من الفرنج وقادتهم . . .

فاختلفت كلمتهم . . . وتفرق شملهم . . .

وكان ذلك من أعظم الأسباب الموجبة لفتح بلادهم . . .

واستنقاذ بيت المقدس منهم . . .

فكيف كان ذلك ؟ ! !

المعَركة العُظمَى
حطّين

صلاح الدين يأمر بالتعبئة العامة ؟!

يعتبر عام ٥٨٣ هـ — ١١٨٧ م . . .

عام الفصل بين المسلمين والفرنجة . . . وعام النصر العزيز . . .

في هذه السنة كتب صلاح الدين إلى جميع البلاد ، يستنفر الناس للجهاد . . .

وكتب إلى الموصل . . . وديار الجزيرة . . . وإربل . . . وغيرها من بلاد الشرق . . .

وكتب إلى مصر . . . وسائر بلاد الشام . . . يدعوهم إلى الجهاد . . . ويحثهم عليه . . . ويأمرهم بالتجهز له بغاية الإمكان . . .

إنها الحرب المقدسة . . .

وانه صلاح الدين ! ! !

البطل يخرج ؟!

ثم خرج من دمشق . . . أواخر المحرم . . . في عسكرها ، وقواتها الخاصة ، فسار إلى رأس الماء ، وتلاحقت به العساكر الشامية . . .

فلما اجتمعوا ، جعل عليهم ولده . . . الملك الأفضل عليّ . . . ليجتمع إليه من يرد إليه منها . . .

وسار البطل إلى بصرى . . . في فرقة من الجيش . . . وكان سبب مسيره

وقصده إليها . . . أنه أتته الأخبار أن البرنس أرناط . . . صاحب الكرك . . . يريد أن يقصد الحجاج ليأخذهم من طريقهم . . .

وأظهر أنه إذا فرغ من أخذ الحجاج . . . يرجع إلى طريق الجيش المصري . . . يصدهم عن الوصول إلى صلاح الدين . . .

فسار إلى بصرى . . . ليمنع البرنس أرناط . . . من طلب الحجاج . . . ويلزمه بلده خوفاً . . .

وكان من الحجاج جماعة من أقارب صلاح الدين . . . منهم محمد بن لاجين . . . وهو ابن أخت صلاح الدين . . . وغيره . . .

رعب أصاب أرناط ؟!

فلما سمع أرناط بقرب صلاح الدين من بلاده لم يفارقه ! ! !

وانقطع عما طمع فيه . . . فوصل الحجاج سالمين ! ! !

فلما وصلوا . . . وفرغ سره من جهتهم . . . سار صلاح الدين إلى الكرك . . . وبث سراياه من هناك . . . على ولاية الكرك والشوبك وغيرهما . . . فغنموا وخربوا وأحرقوا .

والبرنس محصور . . . لا يقدر على المنع عن بلده . . .

وسائر الفرنج قد لزموا طرق بلادهم . . . خوفاً من الجيش الذي مع ولده الأفضل . . .

فتمكن من الحصار والنهب والحريق والتخريب . . .

هذا تكتيك البطل . . . لإشاعة الرعب في الأعداء . . . وتحطيم أعصابهم ! ! !

أمرٌ من البطل بتخريب عكا ؟!

ثم أرسل صلاح الدين إلى ولده الأفضل . . . يأمره أن يرسل فرقة من الجيش . . . إلى بلد عكا . . . ينهبونه ويخربونه . . .

فسير فريقاً من أكابر الأمراء . . .

فساروا ليلاً . . . وأصبحوا في صفورية . . .

فخرج إليهم الفرنج . . . في جمع من الداوية والاسبتارية (فرسان المعبد والكنيسة) وغيرهما . . .

فالتقوا هناك . . .

وجرت بينهم حرب تشيب لها المفارق السود . . .

ثم أنزل الله تعالى نصره على المسلمين . . .

فانهزم الفرنج . . . وقتل منهم جماعة . . . وأسر الباقون ! ! !

وكان فيمن قُتل . . . قائد الاسبتارية . . . وكان من فرسان الفرنج المشهورين . . . وله نكايات عظيمة في المسلمين ! ! !

واستولى المسلمون على ما جاورهم من البلاد . . . وغنموا وعادوا سالمين . . .

وكان عودهم على طبرية . . . وعلى رأسها ريموند . . . فلم ينكر ذلك فكان فتحاً كثيراً ! ! !

البطل يستعرض الجيوش ؟!

لما أتت صلاح الدين البشارة . . . بهزيمة الاسبتارية والداوية . . . وهم فرسان المعبد والكنيسة الأشداء . . . وقتل منهم من قتل ، وأسر منهم من أسر . . .

عاد من الكرك إلى الجيش الذي مع ولده الملك الأفضل . . .

وقد تلاحقت سائر القادة والجيوش . . . واجتمع بهم . . . وساروا جميعاً . . .

واستعرض الجيوش . . . فبلغت عدتهم اثني عشر ألف فارس . . . سوى المتطوعة ! ! !

فعبأ جيشه قلباً وجناحين . . . وميمنة وميسرة . . . ورماة وساقة . . .

وعرف كل منهم موضعه وموقفه ، وأمره بملازمته . . .

وسار البطل على تعبئة . . .

فنزل بالأقحوانة بقرب طبرية . . .

وتشعشع من فوقهم قوله صلى الله عليه وسلم :

« لا يهزم اثني عشر ألفاً من قلة » ! ! !

ريموند ينقض المعاهدة ؟!

وكان القمص ريموند قد انتمى إلى صلاح الدين . . . كما ذكرنا . . .

فلما رأى الفرنج الجيوش الإسلامية ، وتصميم العزم على قصد بلادهم ... أرسلوا إلى ريموند . . . البطرك والقسوس والرهبان وكثيراً من الفرسان . . . فأنكروا عليه انتماءه إلى صلاح الدين . . .

وقالوا له : لا شك أسلمتَ ؟ ! ! . . . وإلاّ لم تصبر عن فعل المسلمين أمس بالفرنج . . . يقتلون الداوية والاسبتارية . . . ويأسرونهم . . . ويجتازون بهم عليك . . . وأنت لا تنكر ذلك ؟ ! !

ووافقهم على ذلك من عنده من جيش طبرية وطرابلس . . .

وتهدده البطرك ، أنه يحرمه ، ويفسخ عليه نكاح زوجته إلى غير ذلك من التهديد . . .

فلما رأى القمص ريموند شدة الأمر عليه ، خاف واعتذر وتنصل وتاب . . .

فقبلوا عذره ، وغفروا زلته ، وطلبوا منه الموافقة على المسلمين . . .
والمؤازرة على حفظ بلاد الفرنج . . .
فأجابهم إلى المصالحة . . . والانضمام إليهم . . . والاجتماع بهم . . .
وسار معهم إلى ملك الفرنج . . . ملك بيت المقدس . . .
واجتمعت كلمتهم بعد فرقتهم ! ! !
وجمعوا فارسهم وراجلهم . . . ثم ساروا من عكا إلى صفورية . . .
وهم يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى ، قد ملئت قلوبهم رعباً ! ! !

مؤتمر عسكري برئاسة صلاح الدين ؟!

لما اجتمع الفرنج . . . وساروا إلى صفورية . . .
جمع القائد الأعلى البطل صلاح الدين قواده واستشارهم . . .
فأشار أكثرهم عليه بترك اللقاء . . . وأن يضعف الفرنج بشن الغارات ، وإخراب الولايات ، مرة بعد مرة . . .

فقال له بعض قواده : الرأي عندي أننا نجوس بلادهم ، وننهب ونخرب ونحرق ونسبي . . . فإن وقف أحد من جيش الفرنج بين أيدينا لقيناه . . . فإن الناس بالمشرق يلعنوننا ويقولون : ترك قتال الكفار ، وأقبل يريد قتال المسلمين ! ! ، والرأي أن نفعل فعلاً نعذر فيه ، ونكف الألسنة عنا . . .

فقال صلاح الدين : **الرأي عندي أن نلقي بجمع المسلمين جمع الكفار ، فإن الأمور لا تجري بحكم الإنسان ، ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا ، ولا ينبغي أن نفرق هذا الجمع إلاّ بعد الجد بالجهاد » ! ! !**

البطل يصطف للمعركة ؟!

فسار حتى خلّف طبرية وراء ظهره . . .

وصعد جبلها . . . وتقدم حتى قارب الفرنج . . .

فلم يرَ منهم أحداً ! ! !

ولا فارقوا خيامهم ! ! !

فنزل وأمر الجيش بالنزول . . .

فلما جنّه الليل ، جعل في مقابل الفرنج من يمنعهم من القتال . . .

ونزل بفرقة إلى طبرية . . . وقاتلها . . . ونقب بعض أبراجها . . . وأخذ المدينة عنوة في ليلة ! ! !

ولجأ من بها إلى القلعة التي لها . . . فامتنعوا بها . . . وفيها صاحبتها ومعها أولادها . . .

فغنم ما في المدينة وأحرقها . . .

فلما سمع الفرنج بنزول صلاح الدين إلى طبرية . . . وملكه المدينة ، وأخذه ما فيها وإحراقها ، وإحراق ما تخلف مما لا يحمل . . .

اجتمعوا للمشورة . . .

فأشار بعضهم بالتقدم إلى المسلمين وقتالهم ومنعهم من طبرية . . .

أرناط يسخر من ريموند ؟!

فقال القمص ريموند : إن طبرية لي ولزوجتي ، وقد فعل صلاح الدين ما فعل . . . وبقي القلعة وفيها زوجتي ، وقد رضيت أن يأخذ القلعة وزوجتي وما لنا بها ويعود . . .

« فوالله لقد رأيت عساكر الإسلام قديماً وحديثاً ، ما رأيت مثل هذا الجيش الذي مع صلاح الدين كثرة وقوة ! ! !

وإذا أخذ طبرية لا يمكنه المقام بها ، فمتى فارقها وعاد منها أخذناها ، وإن أقام بها لا يقدر على المقام بها إلاّ بجميع جيشه ، ولا يقدرون على الصبر طول الزمان عن أوطانهم وأهليهم ، فيضطر إلى تركها ، ونفك من أسر منّا . .

فقال له برنس أرناط . . . صاحب الكرك : **قد أطلت في التخويف من المسلمين ، ولا شك أنك تريدهم وتميل إليهم ، وإلاّ ما كنت تقول هذا ؟ ! . وأما قولك إنهم كثيرون فإن النار لا يضرها كثرة الحطب ! ! !**

فقال : أنا واحد منكم ، إن تقدمتم تقدمت ، وإن تأخرتم تأخرت ، وسترون ما يكون .

فقوي عزمهم على التقدم إلى المسلمين وقتالهم . . .

فرحلوا من معسكرهم الذي لزموه . . . وقربوا من جيش الإسلام ! ! !

وأفلح صلاح الدين . . . في استخراجهم من مكانهم . . . واستدراجهم للقتال ! ! !

الليلة الفاصلة ؟!

فلما سمع صلاح الدين بذلك . . . عاد من طبرية إلى جيشه ، وكان قريباً منه . . .

وإنما كان هدفه بمحاصرة طبرية أن يفارق الفرنج مكانهم ، ليتمكن من قتالهم ! ! !

وتلك عبقرية من البطل . . . أن يستخرج عدوه إلى المكان الذي يريده ! ! !

وكان المسلمون قد نزلوا على الماء . . . والزمان قيظ شديد الحر . . .

فوجد الفرنج العطش . . .

ولم يتمكنوا من الوصول إلى ذلك الماء من المسلمين . . .

وكانوا قد أفنوا ما هناك من ماء الصهاريج . . . ولم يتمكنوا من الرجوع خوفاً من المسلمين . . .

فبقوا على حالهم إلى الغد . . . وهو يوم السبت . . . وقد أخذ العطش منهم . . .

وأما المسلمون فإنهم طمعوا فيهم . . . وكانوا من قبل يخافونهم . . . فباتوا يحرض بعضهم بعضاً . . .

وقد وجدوا ريح النصر والظفر . . .

وكلما رأوا حال الفرنج خلاف عادتهم مما ركبهم من الخذلان . . . زاد طمعهم وجرأتهم . . .

فأكثروا التكبير والتهليل طول ليلتهم . . .

ورتب السلطان تلك الليلة الرماة . . . ورتب فيهم النشاب ! ! !

المعركة الكبرى . . . حطّين ؟!

أصبح البطل صلاح الدين . . . والمسلمون يوم السبت . . . لخمس بقين من ربيع الآخر . . .

فركبوا . . . وتقدموا إلى الفرنج ! ! !

الله . . . الله . . . إن الفرسان يتقدمون للموت . . . وعلى رأسهم البطل ! !

فركب الفرنج . . .

ودنا بعضهم من بعض . . .

إلاّ أن الفرنج قد اشتد بهم العطش . . . وانخذلوا . . .
فاقتتلوا . . .
واشتد القتال . . .
وصبر الفريقان . . .
ورمى رماة المسلمين من النشاب . . . ما كان كالجراد المنتشر . . .
فقتلوا من خيول الفرنج كثيراً . . .
أما الفرنج . . . فقد جمعوا نفوسهم . . . براجلهم . . . وهم يقاتلون ..
سائرين نحو طبرية . . . لعلهم يردون الماء ! ! !
فلما علم صلاح الدين مقصدهم . . . صدهم عن مرادهم . . .
ووقف بالعسكر في وجوههم ! ! !

البطل يحرض جنوده ؟!

وطاف بنفسه على المسلمين يحرضهم . . . ويأمرهم بما يصلحهم . . . وينهاهم عما يضرهم . . .

والناس يأتمرون لقوله ، ويقفون عند نهيه ! ! !

منظر خالد . . . البطل . . . في ملابس الميدان . . . يتنقل بين صفوف جيوشه . . . على صهوة جواده . . . وألوف الفرسان من المسلمين . . . على صهوات خيولهم . . .

كل ينتظر . . . إحدى الحسنيين . . . إما النصر . . . وإما الشهادة ! ! !
إن صلاح الدين . . . ها هنا أعظم داعية . . . إلى الله . . .
إنه الفارس الأعظم . . .
يخاطب الفرسان . . . في صفوفهم ! ! !

ما أجمل هذا ؟ ! !

ما أعظم هذا ؟ ! !

« إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الذينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ » ! ! !

ثم ماذا ؟ ! !

الالتحام ؟!!

فحمل مملوك من مماليكه الصبيان . . . حملة منكرة على صف الفرنج ... فقاتل قتالاً عجب منه الناس . . .

ثم تكاثر الفرنج عليه فقتلوه ! ! !

فحين قُتل . . . حمل المسلمون حملة منكرة . . . ضعضعوا الكفار . . . وقتلوا منهم كثيراً . . .

فلما رأى القمص ريموند شدة الأمر . . . علم أنهم لا طاقة لهم بالمسلمين . .

فاتفق هو وجماعة . . . وحملوا على من يليهم . . .

وكان قائدالمسلمين في تلك الناحية . . . تقي الدين عمر . . . ابن أخي صلاح الدين . . .

فلما رأى حملة الفرنج حملة مكروب . . . علم أنه لا سبب إلا الوقوف في وجوههم . . .

فأمر أصحابه أن يفتحوا لهم طريقاً يخرجون منه . . .

وكان بعض المتطوعين قد ألقى في تلك الأرض ناراً . . .

وكان الحشيش كثيراً . . . فاحترق . . .

وكانت الريح . . . فحملت حرّ النار والدخان إليهم ! ! !
فاجتمع عليهم العطش . . .
وحرّ الزمان . . .
وحرّ النار والدخان . . .
وحرّ القتال ! ! !

فطلعت الشمس على وجوه الفرنج . . . واشتد الحرّ ، وقوي بهم العطش . . .

وكان تحت أقدام خيولهم حشيش قد صار هشيماً . . .

وكان ذلك عليهم مشئوماً . . .

فأمر السلطان النفاطة أن يرموه بالنفط . . .

فرموه . . . فتأجج ناراً . . . تحت سنابك خيولهم . . .

فاجتمع عليهم حر الشمس . . . وحر العطش . . . وحر النار . . . وحر السلاح . . . وحر رشق النبال ! ! !

فلما انهزم القمص ريموند . . . سقط في أيديهم . . . وكادوا يستسلمون !

ثم علموا أنهم لا ينجيهم من الموت إلاّ الإقدام عليه . . .

فحملوا حملات متداركة . . .

كادوا يزيلون المسلمين على كثرتهم عن مواقفهم . . . لولا لطف الله بهم . . .

إلاّ أن الفرنج لا يحملون حملة فيرجعون . . . إلاّ وقد قتل منهم . . . فوهنوا لذلك وهنا عظيماً ! ! !

البطل يأمر بالتكبير والهجوم ؟!

ثم أمر السلطان بالتكبير . . . والحملة الصادقة . . .

فأحاط بهم المسلمون . . . إحاطة الدائرة بقطرها . . .
فارتفع من بقي من الفرنج . . . إلى تل . . . بناحية « **حطين** » . . .
وأرادوا أن ينصبوا خيامهم . . . ويحموا نفوسهم به . . .
واشتد القتال عليهم من سائر الجهات . . .
ومنعوهم عما أرادوا . . .
ولم يتمكنوا من نصب خيمة غير خيمة ملكهم لا غير ! ! !

وأخذ المسلمون صليبهم الأعظم . . . الذي يسمونه « صليب الصلبوت ».. ويذكرون أن فيه قطعة من الخشبة التي صلب عليها المسيح عليه السلام ! ! !

فكان أخذه عندهم من أعظم المصائب عليهم . . . وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك . . .

هذا والقتل والأسر يعملان في فرسانهم ومشاتهم ! ! !

فبقي الملك على التل . . . في مقدار مائة وخمسين فارساً من الفرسان المشهورين . . . والشجعان المذكورين ! ! !

البطل يسجد لله شكراً ؟!

فحكي عن الملك الأفضل — ولد صلاح الدين — قال :

« كنت إلى جانب أبي في ذلك المصاف ، وهو أول مصاف شاهدته ،

« فلما صار ملك الفرنج على التل في تلك الجماعة ، حملوا حملة منكرة على من بإزائهم من المسلمين ، حتّى ألحقوهم بوالدي . قال :

« فنظرت إليه ، وقد علته كآبة ، واربد لونه ، وأمسك بلحيته ، وتقدم وهو يصيح « كذب » الشيطان .

« قال : فعاد المسلمون على الفرنج ، فرجعوا فصعدوا إلى التل . . .

« فلما رأيت الفرنج قد عادوا ، والمسلمون يتبعونهم ، صحت من فرحي « هزمناهم » ! ! !

« فعاد الفرنج ، فحملوا حملة ثانية مثل الأولى ، ألحقوا المسلمين بوالدي ، وفعل مثل ما فعل أولاً .

« وعطف المسلمون عليهم ، فألحقوهم بالتل ، فصحت أنا أيضاً « هزمناهم » ! ! !

« فالتفت والدي إليّ وقال : اسكت ، ما نهزمهم حتّى تسقط تلك الخيمة .

« قال : فهو يقول لي . . . وإذا الخيمة قد سقطت » ! ! !

فنزل السطان . . .

وسجد شكراً لله تعالى . . .

فبكى من فرحه . . .

وكان سبب سقوطها أن الفرنج لما حملوا تلك الحملات ، ازدادوا عطشاً . . .

وقد كانوا يرجون الخلاص في بعض تلك الحملات مما هم فيه . . .

فلم يجدوا إلى الخلاص طريقاً . . .

فنزلوا عن دوابهم . . . وجلسوا على الأرض . . .

فصعد المسلمون إليهم . . .

فألقوا خيمة الملك . . .

وأسروهم عن بكرة أبيهم . . .

وفيهم الملك . . . وأخوه . . .

والبرنس أرناط صاحب الكرك . . . ولم يكن في الفرنج أشد منه عداوة للمسلمين ! ! !

٣٠٠٠٠ قتيل و ٣٠٠٠٠ أسير ؟ !

وأسروا أيضاً صاحب جبيل . . . وابن همفري . . . وقائد الداوية . . . وكان من أعظم الفرنج شأناً . . .

وأسروا أيضاً جماعة من الداوية . . . وجماعة من الاسبتارية . . .

وكثر القتل والاسر فيهم . . .

فكان من يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا واحداً . . .

ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحداً ! ! !

فقتل منهم ثلاثون ألفاً من ذلك اليوم . . .

وأسر ثلاثون ألفاً من شجعانهم وفرسانهم ! ! !

وما أصيب الفرنج منذ خرجوا إلى الساحل . . . وهو سنة ٤٩١ هـ . . . إلى الآن بمثل هذه الوقعة . . .

البطل يضرب عنق أرناط ؟!

فلما فرغ المسلمون منهم . . . نزل صلاح الدين في خيمته . . .

وأحضر ملك الفرنج عنده . . . وبرنس صاحب الكرك . . .

وأجلس الملك إلى جانبه . . . وقد أهلكه العطش . . . فسقاه ماء مثلوجاً . . . فشرب وأعطى فضله برنس صاحب الكرك فشرب . . .

فغضب السلطان ، وقال له : إنما ناولتك ، ولم آذن لك أن تسقيه . . . هذا لا عهد له عندي . . .

ثم تحول السلطان إلى خيمة . . . داخل تلك الخيمة . . .
واستدعى بأرناط صاحب الكرك . . .

فلما أوقف بين يديه . . . قام إليه بالسيف ، ودعاه إلى الإسلام . . . فامتنع . . .

فقال له : نعم . . . أنا أنوب عن رسول الله . . . صلى الله عليه وسلم . . . في الانتصار لأمته . . .

ثم قتله . . . وأرسل برأسه إلى الملوك . . . وهم في الخيمة .

وقال : إن هذا تعرض لسبّ رسول الله . . . صلى الله عليه وسلم . . . وكنت نذرت دفعتين أن أقتله إن ظفرت به . . . إحداهما لما أراد المسير إلى مكة والمدينة . . . والثانية لما أخذ القافلة غدراً . . .

فلما قتله . . . وسُحب وأخرج . . . ارتعدت فرائص الملك . . .
فسكن جأشه وأمّنه . . .

ثم قتل السلطان جميع من كان من الأسارى . . . من الداوية والاسبتارية ..

وأما القمص . . . صاحب طرابلس . . . فإنه لما نجا من المعركة ، وصل إلى صور . . . ثم قصد طرابلس . . .

ولم يلبث إلاّ أياماً قلائل ، حتى مات غيظاً وحنقاً . . . مما جرى على الفرنج . . .

وكان جملة جيشهم ثلاثة وستين ألفاً . . . قتل نحواً من نصفه . . . وأسر الباقي ! ! !

فتح طبرية ؟!

لما فرغ صلاح الدين من هزيمة الفرنج . . . توجه إلى طبرية ونازلها . . .

فأرسلت صاحبتها . . . تطلب الأمان لها ولأولادها وأصحابها وما لها . . .

فأجابها إلى ذلك . . .

واستولى على طبرية ! ! !

وهكذا النصر . . . يدفع إلى النصر ! ! !

فتح عكا ؟!

لما فرغ صلاح الدين من طبرية . . . سار عنها إلى عكا . . .

فبينما هو ينظر من أين يزحف عليها . . . إذ خرج كثير من أهلها يضرعون ويطلبون الأمان . . .

فأجابهم إلى ذلك . . . وأمنهم على أنفسهم وأموالهم . . .

وخيّرهم بين الإقامة والرحيل . . .

فاختاروا الرحيل . . .

ودخل المسلمون إليها . . . وصلوا بها الجمعة . . .

وهذه الجمعة أول جمعة أقيمت بالساحل الشامي . . . بعد أن ملكه الفرنج . . .

وهكذا بانهيار القوة العظمى للصليبيين في معركة حطين . . . بدأت البلاد التي كانت بأيديهم تتهاوى بدون مقاومة تستحق الذكرَ . . . في أيدي صلاح الدين ! ! !

فتح المجدل ؟!

لما هزم صلاح الدين الفرنج . . . أرسل إلى أخيه العادل بمصر يبشره بذلك . . . ويأمره بالمسير إلى بلاد الفرنج من جهة مصر بمن بقي عنده من الجيش . . . ومحاصرة من يليه منها . . .

فسارع إلى ذلك . . . وسار عن مصر . . . فنازل حصن مجدل وحاصره وغنم ما فيه . . .

وأرسل إلى صلاح الدين يبشره بذلك ! ! !

فتح يافا ؟!

لما خرج العادل من مصر . . . وفتح المجدل . . . سار إلى مدينة يافا . . . وهي على الساحل . . . فحاصرها واستولى عليها عنوة ! ! !

فتح صيدا ؟!

ثم سار صلاح الدين إلى صيدا . . . فأخذها بغير قتال . . . وتسلمها ساعة وصوله إليها ! ! !

فتح بيروت ؟!

فلما فرغ من صيدا . . . سار عنها من يومه نحو بيروت . . .

وزحف المسلمون إليها مرة بعد مرة . . .

ثم أرسل أهلها يطلبون الأمان . . .

فأمنهم عن أنفسهم وأموالهم . . . ثم تسلمها ! ! !

فتح عسقلان ؟!

لما استولى صلاح الدين على بيروت وغيرها . . . كان أمر عسقلان والقدس أهم عنده . . . لأنه كان يفضل أن تتصل الولايات له ، ليسهل خروج الجنود منها ودخولهم إليها . . .

فسار عن بيروت نحو عسقلان . . .

وبعد قتال قليل . . . راسلوا صلاح الدين في تسليم البلد . . .

فأجابهم صلاح الدين . . . وسلموا المدينة . . .

وسيرهم صلاح الدين ونساءهم وأموالهم وأولادهم إلى بيت المقدس . . . كما طلبوا . . .

ثم اقام بظاهرها . . . وبث السرايا في أطراف البلاد المجاورة لها . . .

ففتحوا الرملة . . . والداروم . . . وغزة . . . ومشهد إبراهيم الخليل عليه السلام . . . وبيت لحم . . . وبيت جبريل . . . والنطرون . . .

وهكذا تساقطت بلاد الصليبيين . . . وحصونهم . . . وقلاعهم . . .

واستوى البطل عليها ؟ ! !

البَطَل يفتَح القدس

الأسطول المصري يحاصر القدس بحراً ؟!

لما فرغ صلاح الدين من أمر عسقلان وما يجاورها من البلاد . . .

أرسل إلى مصر . . . ليخرج الأسطول الذي بها . . . في جمع من المقاتلة . . .

فخرج الأسطول المصري . . . يقوده حسام الدين لؤلؤ الحاجب . . .

وهو معروف بالشجاعة والشهامة ويمن النقيبة . . .

فأقاموا في البحر . . . يقطعون الطريق على الفرنج . . . كلما رأوا لهم مركباً غنموه . . .

فحين وصل الأسطول ، وخلا سره من تلك الناحية . . .

سار البطل عن عسقلان . . . إلى القدس ! ! !

الصليبيون يحتشدون في القدس ؟!

وكان بالقدس البطرك المعظم عندهم . . . وهو أعظم شأناً من ملكهم . . .

وبه أيضاً باليان بن بيرزان صاحب الرملة . . . وكانت مرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك . . .

وبه أيضاً من خلص فرسانهم من حطين . . .

وقد جمعوا وحشدوا . . . واجتمع أهل تلك النواحي . . . عسقلان وغيرها . . .

واجتمع به كثير من الخلق . . . كلهم يرى الموت أيسر عليه من أن يملك المسلمون القدس . . .

ويرى أن بذل نفسه وماله وأولاده ، بعض ما يجب عليه من حفظه ! ! !

وحصنوه تلك الأيام . ما وجدوا إليه سبيلاً . . .

وصعدوا على سوره بجدهم وحديدهم . . . مجتمعين على حفظه والدفاع عنه . . . بجهدهم وطاقتهم . . . مظهرين العزم على المناضلة بحسب استطاعتهم . .

ونصبوا المنجنيقات ليمنعوا من يريد الدنو منه والنزول عليه . . .

القضاء على داورية للمسلمين ؟!

ولما قرب صلاح الدين منه . . .

تقدم قائد في جماعة عن أصحابه . . . غير محتاط ولا حذر . . .

فلقيه جمع من الفرسان خرجوا من القدس . . . ليكونوا حرساً . . .

فقاتلوه وقاتلهم . . . فقتلوه . . . وقتلوا جماعة ممن معه . . .

فأحزن المسلمين قتله . . . وفجعوا بفقده . . .

معركة القدس ؟!

وساروا حتى نزلوا على القدس . . .

فلما نزلوا عليه . . . رأى المسلمون على سوره من الرجال ما هالهم . . .

وسمعوا لأهله من الغلبة والضجيج من وسط المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع . . .

وبقي صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول المدينة ، لينظر من أين يقاتله ؟ !

لأنه في غاية الحصانة والامتناع . . . فلم يجد عليه موضع قتال إلا من جهة الشمال . . . نحو باب عمود أو كنيسة صهيون . . .

فانتقل إلى هذه الناحية . . . في العشرين من رجب . . . ونصب تلك الليلة المنجنيقات . . . فأصبح من الغد وقد فرغ من نصبها . . . ورمى بها . . .

ونصب الفرنج على سور البلد منجنيقات . . . ورموا بها . . .

وقوتلوا أشد قتال رآه أحد من الناس . . .

كل واحد من الفريقين . . . يرى ذلك ديناً . . . وحتماً واجباً . . . فلا يحتاج فيه إلى باعث سلطاني . . .

بل كانوا يمنعون ولا يمتنعون . . . ويزجرون ولا ينزجرون . . .

وكان خيالة الفرنج كل يوم يخرجون إلى ظاهر البلد . . . يقاتلون ويبارزون . . . فيُقتل من الفريقين . . .

وممن استشهد من المسلمين . . . القائد عز الدين عيسى بن مالك . . . وهو من كبار القواد . . . وكان يصطلي القتال بنفسه كل يوم . . . فقُتل . . . وكان محبوباً إلى الخاص والعام . . .

فلما رأى المسلمون مصرعه ، عظم عليهم ذلك ، وأخذ من قلوبهم . . .

فحملوا حملة رجل واحد . . .

فأزالوا الفرنج عن مواقعهم . . . فأدخلوهم بلدهم . . .

ووصل المسلمون إلى الخندق . . . فجاوزوه . . . والتصقوا إلى السور فنقبوه . . .

وزحف الرماة يحمونهم . . .

والمنجنيقات توالي الرمي . . . لتكشف الفرنج عن الأسوار . . . ليتمكن المسلمون من النقب . . .

فلما نقبوه . . . حشوه بالمتفجرات . . .

فلما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين . وتحكم المنجنيقات بالرمي المتتابع . . . وتمكن النقابين من النقب . . . وأنهم قد أشرفوا على الهلاك . . .

اجتمع قوادهم يتشاورون ، فيما يأتون ويذرون . . .

فاتفق رأيهم على طلب الأمان . . . وتسليم البيت المقدس إلى صلاح الدين

فأرسلوا جماعة من كبرائهم وأعيانهم في طلب الأمان ! ! !

صلاح الدين يرفض عرض الصليبيين ؟!

فلما ذكروا ذلك للسلطان . . . امتنع من إجابتهم . . .

وقال : **لا أفعل بكم ، إلاّ كما فعلتم بأهله ، حين ملكتموه سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثلها .**

فلما رجع الرسل خائبين محرومين . . . أرسل باليان بن بيرزان . . . وطلب الأمان لنفسه . . . ليحضر عند صلاح الدين في هذا الأمر . . .

فأجيب إلى ذلك . . .

وحضر عنده . . . ورغب في الأمان وسأل فيه . . .

فلم يجبه إلى ذلك . . .

واستعطفه فلم يعطف عليه . . .

واسترحمه فلم يرحمه . . .

فلما أيس من ذلك ، قال له :

« أيها السلطان . . . اعلم أننا في هذه المدينة . . . في خلق كثير لا يعلمهم

إلاّ الله تعالى . . . وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان . . . ظناً منهم أنك تجيبهم إليه كما أجبت غيرهم .

« وهم يكرهون الموت ، ويرغبون في الحياة .

« فإذا رأينا الموت لا بد منه ، فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا . ونحرق أموالنا وأمتعتنا ، ولا نترككم تغنمون منها ديناراً واحداً ولا درهماً ، ولا تسبون وتأسرون رجلاً ولا امرأة .

« وإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصحن والمسجد الأقصى وغيرها من المواضع .

« ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين ، وهم خمسة آلاف أسير .

« ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً إلاّ قتلناه .

« ثم خرجنا إليكم كلنا ، وقاتلناكم قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه

« وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله . . . ونموت أعزاء أو نظفر كراماً » ! ! !

القدس تستسلم للبطل ؟!

فاستشار صلاح الدين أصحابه . . . فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان . . .
فأجاب صلاح الدين حينئذ إلى بذل الأمان للفرنج . . .

فاستقر أن يؤخذ من الرجل عشرة دنانير . . . يستوي فيه الغني والفقير . . . والطفل من الذكور والبنات دينارين . . . والمرأة خمسة دنانير . . .

فمن أدى ذلك إلى أربعين يوماً فقد نجا . . . ومن انقضت الأربعون يوماً عنه ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكاً . . .

وسلمت المدينة يوم الجمعة . . . السابع والعشرين من رجب . . .

وكان يوماً مشهوداً . . .

ورفعت الأعلام الإسلامية على أسوار مدينة القدس ! ! !

وعيّن صلاح الدين على أبواب المدينة . . . في كل باب أميناً من القواد ليأخذوا من أهله ما استقر عليهم من الفدية ! ! !

ماذا كان في القدس ؟!

وكان فيه على الضبط . . . ستون ألف رجل . . . ما بين فارس وراجل . . . سوى من يتبعهم من النساء والولدان . . .

ولا يعجب السامع من ذلك . . . فإن البلد كبير . . . واجتمع إليه من تلك النواحي . . . من عسقلان وغيرها . . . والداروم والرملة وغزة وغيرها من القرى . . . بحيث امتلأت الطرق والكنائس . . .

وكان الإنسان لا يقدر أن يمشي ! ! !

وأطلق باليان بن بيرزان ثمانية عشر ألف رجل . . . وزن عنهم ثلاثين ألف دينار . . .

وأخذ أسيراً ستة عشر ألف آدمي . . . ما بين رجل وامرأة وصبي . . .

واستوهب جماعة من صلاح الدين عدداً من الفرنج . . . فوهبهم لهم ! ! !

صلاح الدين يعفو عن الملكات ؟!

وكان بالقدس بعض نساء الملوك من الروم . . . وقد ترهبت وأقامت به ومعها من الحشم والعبيد والجواري خلق كثير . . . ولها من الأموال والجواهر النفيسة شيء عظيم . . .

فطلبت الأمان لنفسها ومن معها . . . فأمنها . . . وسيرها ! ! !

سيبيللا ملكة القدس ؟!

وكذلك أيضاً أطلق ملكة القدس . . . سيبيللا . . . التي كان زوجها الذي أسره صلاح الدين . . . قد ملك الفرنج بسببها . . . ونيابة عنها كان يقوم بالملك . . .

وأطلق مالها وحشمها . . . وأستأذنته في المسير إلى زوجها . . . وكان حينئذ محبوساً بقلعة نابلس . . .

فأذن لها . . . فأتته . . . وأقامت عنده ! ! !

وأرملة البرنس أرناط ؟!

وأتته أيضاً امرأة للبرنس أرناط . . . صاحب الكرك . . . وهو الذي قتله صلاح الدين بيده يوم المصاف بحطين . . .

فشفعت في ولد لها مأسور . . .

فقال لها صلاح الدين : **إن سلمتِ الكرك أطلقته . . .**

فسارت إلى الكرك . . . فلم يسمع منها الفرنج ولم يسلموه . . .

فلم يطلق ولدها . . .

ولكنه أطلق مالها ومن تبعها ! ! !

لا أغدر به ؟!

وخرج البطرك الكبير الذي للفرنج . . .

ومعه من الأموال ما لا يعلمه إلاّ الله . . .

فلم يعرض له صلاح الدين ! ! !

فقيل له ليأخذ ما معه . . . يقوي به المسلمين . . .

فقال : لا أغدر به ! ! !

ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير ! ! !

وسير الجميع ومعهم من يحميهم . . . إلى مدينة صور . . .

قبة الصخرة ؟!

وكان على رأس قبة الصخرة صليب كبير مذهب . . .

فلما دخل المسلمون البلد يوم الجمعة . . . تسلق جماعة منهم إلى أعلى القبة ليقلعوا الصليب . . .

فحين صعدوا . . . صاح الناس كلهم صوتاً واحداً . . . من البلد ومن ظاهره . . . المسلمون والفرنج . . .

أما المسلمون فكبروا فرحاً . . .

وأما الفرنج فصاحوا تفجعاً وتوجعاً . . .

فسمع الناس صيحة . . . كادت الأرض أن تميد بهم لعظمها وشدتها ! ! !

البطل يصلي في المسجد الأقصى ؟!

فلما ملك البلد . . . وفارقه الكفار . . . أمر صلاح الدين إعادة الأبنية إلى حالها القديم . . .

فإن الداوية . . . فرسان المعبد . . . بنوا غربي الأقصى أبنية ليسكنوها . . . وأدخلوا بعض الأقصى في أبنيتهم . . . فأعيد إلى الحال الأول . . .

وأمر بتطهير المسجد والصخرة من الأقذار والأنجاس . . . ففعل ذلك أجمع . . .

ولما كان الجمعة الأخرى . . . رابع شعبان . . .

صلى المسلمون فيه الجمعة . . . ومعهم صلاح الدين . . .
وصلى في قبة الصخرة ! ! !

مرسوم بتعيين الخطيب ؟!

وكان الخطيب والإمام . . . محيي الدين بن الزكي . . . قاضي دمشق . . .

ولما أذن المؤذنون للصلاة . . . قبل الظهر . . . كادت القلوب تطير من الفرح في ذلك الحال . . .

ولم يكن عُين خطيب . . .
فبرز من السلطان . . . المرسوم الصلاحي . . . وهو في قبة الصخرة . . .
أن يكون القاضي محيي الدين اليوم خطيباً . . .
فلبس الخلعة السوداء . . .
وخطب للناس خطبة سنية . . . فصيحة بليغة . . .
ذكر فيها شرف البيت المقدس . . .
وما ورد فيه من الفضائل والترغيبات . . .
وما فيه من الدلائل والأمارات ! ! !

وكان أول ما قال : **(فقُطع دابرُ القومِ الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) . . .**

ثم ذكر تمام الخطبتين . . .
ثم دعا للخليفة الناصر العباسي . . .
ثم دعا للسلطان الناصر صلاح الدين ! ! !

تنظيم المسجد الأقصى ؟!

ثم رتب صلاح الدين . . . خطيباً وإماماً . . . برسم الصلوات الخمس . . .

وأمر أن يعمل له منبر . . .
فقيل له إن نور الدين محمود كان قد عمل بحلب منبراً . . .
وأمر الصناع بالمبالغة في تحسينه وإتقانه . . .
فعمله النجارون في عدة سنين . . . لم يعمل في الإسلام مثله . . .
فأمر بإحضاره . . . فحمل من حلب . . . ونصب بالقدس . . .
ولما فرغ صلاح الدين من صلاة الجمعة . . . تقدم بعمارة المسجد الأقصى . . . واستنفاد الوسع في تحسينه وترصيفه وتدقيق نقوشه . . .
فشرعوا في عمارته . . .
ورتب القراء . . . وأدر عليهم الوظائف الكثيرة . . .
فعاد الإسلام هناك غضاً طرياً . . . وهذه المكرمة . . . من فتح بيت المقدس . . . لم يفعلها بعد عمر بن الخطاب . . . رضي الله عنه . . .
غير صلاح الدين رحمه الله . . .
وكفاه ذلك فخراً وشرفاً ! ! !

مفتاح شخصيّة صَلاح الدّين؟

صلاح الدين ؟!! ذلكم العبقري الخالد ...

أغرودة الشرق . . . وأغرودة الغرب . . . على حد سواء . . .

من أين له تلك العظمة ؟ ! !

وما ينبوعها . . . وما سرّها ؟ ! !

إليك تلك الأقصوصة . . . الفريدة الفذّة . . . التي تكشف لك . . . سر عبقريته كلها ؟ ! !

لما رجع السلطان من إحدى غزواته إلى دمشق . . .

وكان ذلك في المحرم . . . سنة ٥٨٤ هـ ــ ١١٨٨ م . . .

وجد وكيل الخزانة قد بنى له داراً بالقلعة هائلة . . .

فغضب عليه وعزله ! ! !

وقال : **إنا لم نُخلق للمقام بدمشق . . . ولا بغيرها من البلاد . . .**

وإنما خلقنا لعبادة الله عز وجل . . .

« والجهاد في سبيله . . .

« وهذا الذي عملته مما يثبط النفوس . . . ويقعدها عما خلقت له » ! ! !

هذا هو مفتاح شخصية صلاح الدين . . .

إن الرجل المتملق . . . أراد أن يقدم لصلاح الدين قصراً . . . يتلذذ فيه بلذاذات القصور . . .

فكان عقابه من صلاح الدين أن عزله من منصبه . . .

ثم هتف البطل : إنا لم نخلق للمقام بدمشق . . . ولا بغيرها من البلاد ! ! ! !

إنه يرفض أن يتحول إلى جيفة منتنة . . . من تلك الجيف الملقاة في القصور . . . يعيشون للمتعة . . . متعة الحيوان . . . يأكلون ويشربون ويبولون . . . ويثبون على النساء كما تثب الأنعام . . .

هذا الأسلوب الحقير الدنيء من الحياة . . . وإن كان هو غاية الغايات عند الكثيرين . . .

هذا الأسلوب يتقزز منه صلاح الدين . . . ويعتبره أسلوباً حقيراً . . . أن يعيشه أو يحياه ! ! !

إنه يريد أن يعيش فارساً . . .

يمتطي صهوة جواده . . . وينطلق في الأرض . . . مقاتلاً في سبيل الله . . .

فإما انتصر . . . وإما استشهد ! ! !

« إنما خُلقنا لعبادة الله عز وجل . . . والجهاد في سبيله » ! ! !

ولكن صاحبنا الذي ابتنى القصر . . . بعيد كل البعد عن ذلك الأفق الأعلى . . .

إنه كان يظن أنه ينافق صلاح الدين . . . وينال عنده حظوة وقربى ! ! !

والنفوس العليا . . . لا يفهمها أمثال هؤلاء الأسفلين ! ! !

وأطلقها البطل :

« وهذا الذي عملته مما يثبط النفوس . . . ويقعدها عما خلقت له » ! ! !

ذلك هو المفتاح . . .

إنه فارس . . .

يتكون من عنصرين اثنين . . . الإيمان بالله . . .

والقتال في سبيل الله . . .

وتلك هي منابع العظمة . . . من تلك الشخصية العليا ! ! !

فماذا فعل البطل . . . بعد أن رفض هذا العرض الحقير ! ! !

انقلب يغزو ويغزو . . . ويقاتل ويقاتل . . .

ويتقلب من فتح إلى فتح . . . ومن قتال إلى قتال ! ! !

حصون تتهاوى بين يديه ؟!

ثم خرج السلطان من دمشق . . . وسار إلى حمص وحماة . . . وجاءت الجيوش من الجزيرة . . .

فسار إلى السواحل الشمالية . . . ففتح انطرطوس وغيرها من الحصون . . . وجبلة واللاذقية . . . وفتح صهيون . . . وحصن بلدية . . . ثم فتح حصن دربساك وحصن بغراس . . .

ثم سمت همته إلى فتح أنطاكية . . . فطلب صاحبها الهدنة . . . فهادنه . . .

ثم عاد إلى دمشق . . . وجاءته البشائر بفتح الكرك . . . واتقاذه من أيدي الفرنج ! ! !

هذا هو صلاح الدين . . .

وليس كما ظن المذكور . . . الذي ابتنى له قصراً فخماً . . . ليستمتع به في دمشق ! ! !

إن متعة أمثال صلاح الدين . . . تتحقق في استمراره في الغزو . . . واستمراره في القتال في سبيل الله . . .

ولا يجد هؤلاء في حياة القصور والترف متعة ما ! ! !

فهل هدأ البطل ولو قليلاً ؟ ! !

كلا . . . ها هو يخرج مرة أخرى للقتال ؟ ! !

القضاء على معاقل فرسان المعبد ؟!

لم يقم السلطان بدمشق إلاّ أياماً . . .

حتى خرج قاصداً صفد . . . فنازلها في العشر الأوسط من رمضان . . .

وحاصرها بالمجانيق . . . وكان البرد شديداً يصبح الماء فيه جليداً . . .

فما زال حتى فتحها صلحاً . . .

ثم سار إلى صور . . . فألقت بقيادها . وتبرأت من أنصارها وأجنادها وقوادها ! ! !

ثم صار إلى حصن كوكب . . . وهي معقل الاستبارية . . . كما أن صفد كانت معقل الداوية . . .

وهم فرسان المعبد والكنيسة . . .

فحاصر قلعة كوكب حتى أخذها . . . وقتل من بها . . . وأراح المارة من شر ساكنيها . . .

وتمهدت تلك السواحل . . . واستقر بها منازل قاطنيها . . .

هذا والسماء تصب . . . والرياح تهب . . . والسيول تعب . . . والأرجل في الأوحال تخب . . . وهو في كل ذلك صابر مصابر ! ! !

هذا هو صلاح الدين . . .

وهذه هي متعته الكبرى . . .

الانطلاق . . . القتال . . . الفتح . . . المعارك دائماً وأبداً . . . في سبيل الله ! ! !

ثم ماذا بعد هذا ؟ !

ثم دائماً صلاح الدين على موعد مع المعارك ؟ !

٧٠٠٠ قتيل ؟!

فلما كان شهر رجب . . . اجتمع من كان بصور من الفرنج . . . وساروا إلى مدينة عكا . . .

فأحاطوا بها يحاصرونها . . .

فتحصن من فيها من المسلمين . . . وأعدوا للحصار ما يحتاجون إليه . . .

وبلغ السلطان خبرهم . . . فسار إليهم من دمشق مسرعاً . . .

فوجدهم قد أحاطوا بها إحاطة الخاتم بالخنصر . . .

فلم يزل يدافعهم عنها ويمانعهم منها . . . حتى جعل طريقاً إلى باب القلعة . . . يصل إليه كل من أراده . . . من جندي أو سوقي ، وامرأة وصبي . . .

ثم أدخل إليها ما أراد من الآلات والأمتعة . . .

ودخل هو بنفسه . . . فعلا على سورها . . . ونظر إلى الفرنج وجيشهم وكثرة عددهم وعُددهم . . .

والإمدادات تفد إليهم من البحر ، في كل وقت ، وكل ما لهم في ازدياد ، وفي كل حين تصل إليهم الإمداد . . .

ثم عاد إلى مخيمه والجنود تفد إليه ، وتقدم عليه من كل جهة ومكان ، منهم رجال وفرسان . . .

فلما كان في العشر الأخير من شعبان برزت الفرنج من مراكبها إلى مواكبها . . . في نحو من ألفي فارس . . . وثلاثين ألف راجل . . .

فبرز إليهم السلطان . . . فيمن معه من الشجعان . . .

فاقتتلوا بمرج عكا . . . قتالاً عظيماً . . .

وهُزم جماعة من المسلمين في أول النهار . . .

ثم كانت الدائرة على الفرنج . . .

فكانت القتلى بينهم أزيد من سبعة آلاف قتيل ! ! !

ولما تناهت هذه الوقعة . . . تحول السلطان عن مكانه الأول . . . إلى موضع بعيد من رائحة القتلى . . . خوفاً من الأذى . . . وليستريح الخيالة والخيل ! ! !

ولم يعلم أن ذلك كان من أحسن الفرص للعدو . . . فاغتنموا الفرصة فحفروا حول مخيمهم خندقاً من البحر محدقاً بجيشهم . . .

وكان رأي السلطان أن يناجزوا بعد الكرة سريعاً . . . ولا يتركوا حتى تأتيهم الأمداد من كل صوب . . .

فأرسل السلطان إلى جميع الملوك ليستنفر ويستنصر . . .

فجاءته الأمداد جماعات وآحاداً . . .

وأرسل إلى مصر يطلب أخاه العادل . . . ويستعجل الأسطول . . .

فقدم عليه . . . فوصل إليه خمسون قطعة في البحر مع الأمير حسام الدين لؤلؤ . . .

وقدم العادل في جيش المصريين . . .

فلما وصل الأسطول . . . حادت مراكب الفرنج عنه يمنة ويسرة . . . وخافوا منه . . .

واتصل بالبلد العَدد والعُدد . . . وانشرحت الصدور بذلك ! ! !

الفريقان يحشدان ؟!

استهلت سنة ٥٨٦ هـ — ١١٩٠ م . . .

والسلطان محاصر لحصن عكا . . .

وأمداد الفرنج تفد إليهم من البحر في كل وقت . . .

حتى أن نساء الفرنج ليخرجن بنية القتال . . . ومنهن من تأتي بنية الترفيه عن المقاتلين . . .

قدم إليهم مركب فيه ثلثمائة امرأة من أحسن النساء وأجملهن بهذه النية . . . فإذا وجدوا ذلك ثبتوا على الحرب والغربة . . .

ملك الألمان ؟!

وشاع بين المسلمين والفرنج . . . بأن ملك الألمان قد أقبل بثلاثمائة ألف مقاتل . . . من ناحية القسطنطينية . . . يريد أخذ الشام وقتل أهله . . . انتصاراً لبيت المقدس . . .

فعند ذلك حمل السلطان والمسلمون هما عظيماً . . .

وخافوا غاية الخوف ، مع ما هم فيه من الشغل والحصار الهائل ! ! !

وقويت قلوب الفرنج بذلك . . . واشتدوا للحصار والقتال . . .

ولكن لَطَفَ اللهُ . . . وأهلك عامة جنده في الطرقات بالبرد والجوع والضلال في المهالك على ما سيأتي بيانه ! ! !

الرهبان ينفخون النيران ؟!

وكان سبب قتال الفرنج . . . وخروجهم من بلادهم ونفيرهم . . .

أن جماعة من الرهبان والقسيسين الذين كانوا ببيت المقدس وغيره . . . ركبوا من صور في أربعة مراكب . . . وخرجوا يطوفون ببلدان النصارى البحرية . . . وما هو قاطع البحر من الناحية الأخرى . . .

يحرضون الفرنج ويحثونهم على الانتصار لبيت المقدس . . .

ويذكرون لهم ما جرى على أهل القدس . . . وأهل السواحل من القتل والأسر وخراب الديار . . .

وقد صوروا صورة المسيح وصورة عربي آخر يضربه ويؤذيه . . .

فإذا سألوهم : من هذا الذي يضرب المسيح ؟ ! . .

قالوا : هذا نبي العرب يضربه ، وقد جرحه ومات ! ! !

فينزعجون لذلك . . . ويثورون ويبكون ويحزنون ! ! !

فعند ذلك خرجوا من بلادهم . . . لنصرة دينهم ونبيهم وموضع حجهم . . . على الصعب والذلول . . .

حتى النساء المخدرات . . . والزواني والزانيات ! ! !

(هكذا الأسلوب القديم . . . تنقله كما هو لنعيش مع الأحداث . . . بقلم المعاصرين لها) . . .

أسلحة جديدة تنزل المعركة ؟!

ولما انفصل فصل الشتاء . . . وأقبل الربيع . . . جاءت ملوك الإسلام من بلدانها . . . بخيولها وشجعانها . . . ورجالها وفرسانها . . .

وأرسل الخليفة إلى الملك صلاح الدين . . . أحمالاً من النفط والرماح . . . ونفاطة ونقابين . . . كل منهم متقن في صنعته غاية الإتقان . . .

وانفتح البحر . . . وتواترت مراكب الفرنج من كل جزيرة . . . لأجل نصرة أصحابهم . . . يمدونهم بالقوة والتموين . . .

ثم كانت المفاجأة . . .

عملت الفرنج ثلاثة أبرجة من خشب وحديد . . . عليها جلود مسقاة بالخل . . .

لئلاّ يعمل فيها النفط . . .

يسع البرج منها خمسمائة مقاتل . . . وهي أعلى من أبرجة البلد . . .

وهي مركبة على عجل بحيث يديرونها كيف شاءوا . . . وعلى ظهر كل منها منجنيق كبير . . .

إنه سلاح جديد . . . يفاجأ به صلاح الدين . . .

فلما رأى المسلمون ذلك أهمهم أمرها . . . وخافوا على البلد ومن فيه من المسلمين أن يؤخذوا . . .

فأعمل السلطان فكرة بإحراقها . . .

وأحضر النفاطين . . . ووعدهم بالأموال الجزيلة إن هم أحرقوها . . .

فانبعث لذلك شاب نحّاس . . . من دمشق . . . يُعرف بعلي بن عريف النحاسين ، والتزم بإحراقها . . .

فأخذ النفط الأبيض . . . وخلطه بأدوية يعرفها . . . وغلى ذلك في ثلاثة قدور من نحاس . . . حتى صار ناراً تأجج . . .

ورمى كل برج منها . . . بقدر من تلك القدور بالمنجنيق من داخل عكا . . .

فاحترقت الأبرجة الثلاثة حتى صارت ناراً ! ! !

لها ألسنة في الجو متصاعدة . . .

واحترق من كان فيها ! ! !

فصرخ المسلمون صرخة واحدة بالتهليل . . .

واحترق في كل برج منها سبعون كافراً . . .

وكان الفرنج قد تعبوا في عملها سبعة أشهر . . . فاحترقت في يوم واحد ! !

ثم أمر السلطان لذلك الشاب النحّاس بعطية سنية . . . وأموال كثيرة . . . فامتنع أن يقبل شيئاً من ذلك ! ! !

وقال : **إنما عملت ذلك ابتغاء وجه الله . . . ورجاء ما عنده سبحانه . . . فلا أريد منكم جزاء ولا شكوراً ! ! !**

* * *

وأخيراً . . . لعل صاحبنا الذي ذكرناه في أول هذا الفصل . . . ذلك الذي ابتنى قصراً لصلاح الدين بدمشق . . . ليتلذذ فيه صلاح الدين . . . لعل صاحبنا هذا وأمثاله يدركون أن لذة صلاح الدين هي الحرب . . . وليست القصور والأرائك ! ! !

مُلوك أُوروبّا
يتدفقون للانتقام

الأسطول المصري يقاتل أسطول الفرنج ؟!

وأقبل الأسطول المصري . . . وفيه المؤن الكثيرة لأهل عكا . .
فعبأ الفرنج أسطولهم . . . ليقاتلوا أسطول المسلمين . . .
فنهض السلطان بجيشه ليشغلهم عنهم . . .
وقاتلهم أهل عكا أيضاً . . .
واقتتل الأسطولان في البحر . . . وكان يوماً عسيراً . . . وحرباً في البحر والبر . . .

فظفرت الفرنج بسفينة واحدة من الأسطول الإسلامي . . .

وسلّم الله الباقي . . . فوصل إلى عكا بما فيه من المؤن . . . وكانت حاجتهم قد اشتدت إليها جداً . . . بل إلى بعضها ! ! !

ماذا عن فريدريك ملك الألمان ؟!

وأما ملك الألمان المتقدم ذكره . . . فإنه أقبل في عُدد وعَدد كثير جداً . . . قريب من ثلاثمائة ألف مقاتل . . . وفي خطته خراب البلد . . . وقتل أهلها من المسلمين . . . والانتصار لبيت المقدس . . . وأن يأخذ البلاد إقليماً بعد إقليم . . . حتى مكة والمدينة ! ! !

فما نال من ذلك شيئاً . . . فكانوا يتخطفون كما يتخطف الحيوان . . . حتى اجتاز ملكهم بنهر شديد الجريان . . . فدعته نفسه أن يسبح فيه . . . فلما صار فيه حمله الماء إلى شجرة فشجت رأسه ، وأخمدت أنفاسه ! ! !

فأقيم ولده الأصغر في الملك . . . وقد تمزق شملهم . . .

ثم أقبلوا لا يجتازون ببلد إلاّ قتلوا فيه . . .

فما وصلوا إلى أصحابهم الذين على عكا إلاّ في ألف فارس ! ! !

ونهض صاحب الألمان بالجنود الفرنج . . . فصادم به جيش المسلمين . . . فجاءت جيوش المسلمين بأكملها إليه . . . فقتلوا من الفرنج خلقاً كثيراً . . .

هجوم مفاجىء على مخيم السلطان ؟!

وهجموا مرة على مخيم السلطان بغتة . . . فنهبوا بعض الأمتعة . . .

فنهض الملك العادل أبو بكر وكان قائد الميمنة — فركب في أصحابه . . .

وأمهل الفرنج حتى توغلوا بين الخيام . . .

ثم حمل عليهم بالرماح والسيوف . . .

فهربوا بين يديه . . . فما زال يقتل منهم جماعة بعد جماعة . . .

حتى قيل أنه قتل منهم فيما بين الظهر إلى العصر عشرة آلاف ! ! !

هذا وطرف الميسرة لم يشعر بما جرى . . . بل نائمون وقت القائلة في خيامهم ! ! !

وإنما قتل من المسلمين عشرة أو دونهم ! ! !

وقد أوهن هذا جيش الفرنج وأضعفهم . . . وكادوا يطلبون الصلح ، وينصرفون عن البلد ! ! !

فاتفق قدوم مدد عظيم إليهم من البحر . . . مع ملك يقال له « كيد هرى » . . . ومعه أموال كثيرة . . . فأنفق فيهم ، وعزم عليهم ، وأمرهم أن يبرزوا معه لقتال المسلمين . . .

وجاءت كتب صاحب الروم من القسطنطينية يعتذر لصلاح الدين من جهة ملك الألمان . . . وأنه لم يتجاوز بلده باختياره . . . وأنه تجاوزه لكثرة جنوده ! ! !

لماذا تأخر النصر ؟!

وكان القاضي الفاضل بمصر . . . يدبر الممالك بها . . . ويجهز إلى السلطان ما يحتاج إليه من الأموال . . . وعمل الأسطول . . .

فأرسل إلى السلطان كتاباً يذكر فيه . . . أن سبب هذا التطويل في الحصار . . . كثرة الذنوب . . . وارتكاب المحارم بين الناس . . . فإن الله لا ينال ما عنده إلاّ بطاعته . . .

ومنها كتاب يقول فيه : إنما أتينا من قبل أنفسنا . . . ولو صدقنا لعجل الله لنا عواقب صدقنا . . . ولو أطعناه لما عاقبنا بعدونا . . .

رحم الله القاضي الفاضل . . . من إنسان ما أفصحه ! . . ومن وزير ما كان أنصحه ! . . ومن عقل ما كان أرجحه ! ! !

وصول فيليب ملك فرنسا ؟!

وفي سنة ٥٨٧ هـ — ١١٩١ م . . . وصلت أمداد الفرنج في البحر . . . إلى الفرنج الذين على عكا . . .

وكان أول من وصل منهم . . . الملك فيليب . . . ملك فرنسا . . .

وهو من أشرف ملوكهم نسباً . . . وإن كان ملكه ليس بالكثير . . .

ولم يكن في الكثرة التي ظنوها . . . فقويت به نفوس مَن على عكا منهم . . . ولحوا في قتال المسلمين الذين فيها . . .

وكان صلاح الدين قريباً . . . فكان يركب كل يوم . . . ويقصد الفرنج ليشغلهم بالقتال . . . عن مزاحفة البلد . . .

حياة عجيبة . . . إن البطل في قتال مستمر . . . كل يوم ! ! !

معركة بحرية ؟!

وأرسل السلطان إلى الأمير أسامة . . . محافظ بيروت يأمره بتجهيز ما عنده من المراكب . . . وتشحينها بالمقاتلة . . . وتسييرها في البحر . . . ليمنع الفرنج من الخروج إلى عكا . . .

ففعل ذلك . . . وسير السفن في البحر . . . فصادفت خمسة مراكب مملوءة رجالاً من أصحاب ملك انجلترا . . . وكان قد سيرهم بين يديه . . . وتأخر هو بجزيرة قبرص ليملكها . . .

فاقتتلت سفن المسلمين مع سفن الفرنج .

فاستظهر المسلمون عليهم . . . وأخذوهم وغنموا ما معهم من قوت ومتاع ومال . . . وأسروا الرجال ! ! !

وصول ريتشارد . . . قلب الأسد . . . ملك انجلترا ؟!

ثم وصل ملك انجلترا . . .

وكان قد استولى في طريقه على جزيرة قبرص . . . وأخذها من الروم . . .

ثم سار إلى عكا . . . في خمس وعشرين قطعة بحرية . . . مملوءة رجالاً وأموالاً . . .

فعظم به شر الفرنج . . . واشتدت نكايتهم في المسلمين . . .

فكان رجل زمانه شجاعة ومكراً وجلداً وصبراً . . .

وبلي المسلمون منه بالداهية التي لا مثيل لها . . .

ولما وردت الأخبار بوصوله . . . أمر صلاح الدين بتجهيز قوة كبيرة مملوءة من الرجال والعدد والأقوات . . .

فتجهزت وسيرت من بيروت . . . وفيها سبعمائة مقاتل . . .

فلقيها ملك انجلترا مصادفة . . . فقاتلها وصبر من فيها على قتالها . . فلما أيسوا من الخلاص . . .

أمر قائد المجموعة البحرية . . . فخرقها خرقاً واسعاً لئلا يظفر الفرنج بمن فيها . . . وما معهم من الذخائر . . . فغرق جميع ما فيها . . .

وكانت عكا محتاجة إلى رجال ! ! !

البطل تدمع عينه ؟!

قالوا : وقد كان للمسلمين لصوص . . . يدخلون إلى خيام الفرنج فيسرقون . . . حتى أنهم كانوا يسرقون الرجال . . .

فاتفق أن بعضهم أخذ صبياً رضيعاً . . . من مهده ابن ثلاثة أشهر . . .

فوجدت عليه أمه وجداً شديداً . . . واشتكت إلى ملوكهم فقالوا لها : إن سلطان المسلمين رحيم القلب ، وقد أذنا لك أن تذهبي إليه ، فتشتكي أمرك إليه . . .

قالوا : فجاءت إلى السلطان ، فأنهت إليه حالها . .. فرق لها رقة شديدة ... حتى دمعت عيناه . . .

ثم أمر بإحضار ولدها . . . فإذا هو قد بيع في السوق . . .

فرسم بدفع ثمنه إلى المشتري . . .

ولم يزل واقفاً . . . حتى جيء بالغلام . . . فأخذته أمه وأرضعته ساعة . . . وهي تبكي من شدة فرحها وشوقها إليه . . .

ثم أمر بحملها إلى خيمتها . . . على فرس مكرمة ! ! !

سقوط عكا ؟!

في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة . . . استولى الفرنج على مدينة عكا . . .

وكان ذلك بعد مناوشات بين الفريقين ! ! !

قلب الأسد يواجه صلاح الدين ؟!

لما فرغ الفرنج من إصلاح أمر عكا . . . ساروا نحو حيفا على شاطىء البحر لا يفارقونه . . .

وساروا حتى أتوا حيفا فنزلوا بها . . .

وكان بينهم وبين صلاح الدين . . . مناوشات . . . ومعارك . . . وقتل من هؤلاء وهؤلاء ! ! !

ثم سار صلاح الدين إلى القدس ... فأخذ في تنظيمه . . . وترتيب ما فيه من سلاح وذخائر . . .

وفي هذه الأيام خرج ملك انجلترا من يافا . . . ومعه نفر من الفرنج من معسكرهم . . .

فوقع به نفر من المسلمين . . .

فقاتلوهم قتالاً شديداً . . . وكاد ملك انجلترا يؤسر . . . ففداه بعض أصحابه بنفسه . . .

فتخلص الملك . . . وأسر ذلك الرجل ! ! !

البَطَــل
يوافــق على الهدنة

ثم إن الفرنج ...

أظهروا العزم على قصد بيت المقدس . . .

فسار صلاح الدين إلى الرملة . . . وقرب من الفرنج . . . وبقي عشرين يوماً ينتظرهم . . . فلم يبرحوا . . .

وأقبل الشتاء . . . وحالت الأحوال والأمطار بينهما ! ! !

صلاح الدين ... يستعد بالقدس ؟!

لما رأى صلاح الدين أن الشتاء قد هجم . . . والأمطار متوالية متتابعة . . . والناس منها في ضنك وحرج . . . ومن شدة البرد ولبس السلاح والسهر في تعب دائم . . .

وكان كثير من العساكر قد طال انتظارها . . . فأذن لهم في العود إلى بلادهم . . . للاستراحة والإراحة . . .

وسار هو إلى بيت المقدس . . . فيمن بقي معه . . .

فنزلوا جميعاً داخل البلد فاستراحوا مما كانوا فيه . . .

ونزل هو بدار الأقصى ! ! !

قدوم الجيش المصري ؟!

وقدم إليه جيش مصر . . . قائدهم الأمير أبو الهيجاء . . . فقويت نفوس المسلمين بالقدس . . .

وسار الفرنج من الرملة . . . على عزم قصد القدس . . .

وكان صلاح الدين لما دخل القدس . . . أمر بعمارة سوره . . . وأمر بحفر خندق حوله . . .

وسلم كل برج إلى أمير يتولى عمله . . .

وعمل صلاح الدين بنفسه في تحصين بيت المقدس هو وأولاده . . . وعمل فيه القواد والقضاة والعلماء والصالحون . . .

فكان يركب وينقل الحجارة بنفسه على دابته من الأمكنة البعيدة . . . فيقتدي به الجنود . . .

الصليبيون ... يتقهقرون إلى الرملة ؟!

ثم عاد الفرنج إلى الرملة . . . وكان سبب عودهم أنهم كانوا ينقلون ما يريدون من الساحل . . .

فلما أبعدوا عنه . . . كان المسلمون يخرجون عليهم . . . فيقطعون الطريق . . . ويغنمون ما معهم من إمدادات للجيش . . .

فاستقر رأيهم على التقهقر إلى الرملة . . . وعادوا خائبين ! ! !

الصليبيون ... يهابون لقاء البطل ؟!

استهلت سنة ٥٨٨ هـ — ١١٩٢ م . . .

والسلطان صلاح الدين مخيم بالقدس . . .

وقد قسم قيادة السور بين أولاده وأمرائه . . . وهو يعمل فيه بنفسه . . .

والفرنج حول البلد من ناحية عسقلان . . . لا يتجاسرون أن يقربوا البلد . . . من الحرس الذين حول القدس . . .

إلاّ أنهم على نية محاصرة القدس مصممون . . .

وفي جمادى الأولى استولى الفرنج على قلعة الداروم . . . فخربوها . . . وقتلوا خلقاً كثيراً من أهلها . . . وأسروا طائفة منهم . . .

ثم أقبلوا جملة نحو القدس . . .

فبرز إليهم السلطان . . . في جيشه . . .

فلما تراءى الجمعان . . . نكص جيش الصليبيين راجعين . . . فراراً من القتال والنزال . . .

وعاد السلطان إلى القدس ! ! !

مفاجأة ... من ريتشارد ؟!

ثم إن ريتشارد ملك الانجليز . . . وهو أكبر ملوك الفرنج ذلك الحين . . .

ظفر ببعض فلول المسلمين . . . ففاجأهم ليلاً . . . فقتل منهم خلقاً كثيراً . . . وأسر منهم خمسمائة أسير . . . وغنم منهم شيئاً كثيراً من الأموال والخيل والجمال والبغال . . .

وكان جملة الجمال ثلاثة آلاف بعير ! ! !

فتقوى الفرنج بذلك . . .

وساء ذلك السلطان مساءة عظيمة جداً . . .

وأقبل ريتشارد وقد قويت نفسه جداً . . . وصمم على محاصرة القدس ...

وأرسل إلى ملوك الفرنج الذين بالساحل . . . فاستحضرهم ومن معهم من المقاتلة . . .

فتعبأ السلطان لهم وتهيأ . . .

وأكمل السور . . . وعمر الخنادق . . . ونصب المجانيق . . . وأمر بتغوير ما حول القدس من المياه . . .

مؤتمر عسكري عاجل ... برئاسة البطل ؟!

وأحضر السلطان أمراءه ليلاً . . . فاستشارهم فيما دهمه من هذا الأمر الفظيع الأليم . . .

فأفاضوا في ذلك . . . وأشار كل برأيه . . .

وأشار العماد الكاتب . . . أن يتحالفوا على الموت عند الصخرة . . . كما كان الصحابة يفعلون . . .

فأجابوا إلى ذلك . . .

هذا كله والسلطان ساكت واجم يفكر . . .

فسكت القوم كأنما على رؤوسهم الطير ! ! !

البطل ... يلقي خطاباً تاريخياً ؟!

ثم قال :

« الحمد لله . . . والصلاة والسلام على رسول الله . . .

« اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته .

« وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم في ذممكم معلقة .

« والله عز وجل سائلكم يوم القيامة عنهم .

« وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه عن العباد والبلاد غيركم .

« فإن وليتم والعياذ بالله . . . طوى البلاد . . . وأهلك العباد . . . وأخذ الأموال والأطفال والنساء . . . وعبد الصليب في المساجد . . . وعزل القرآن منها والصلاة . . .

« وكان ذلك كله في ذممكم . . .

« فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا كله . . . وأكلتم مال بيت المسلمين لتدفعوا عنهم عدوهم . . . وتنصروا ضعيفهم . . .

« فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم . . . والسلام » ! ! !

فماذا كان جواب القادة ؟ ! !

البيعة ... على الموت ؟!

فانتدب لجوابه أحد عظماء القادة . . . سيف الدين المشطوب وقال : يا مولانا . . . نحن مماليكك وعبيدك . . . وأنت الذي أعطيتنا وكبرتنا وعظمتنا . . . وليس لنا إلاّ رقابنا . . . ونحن بين يديك . . . والله ما يرجع أحد منا عن نصرك حتى يموت ! ! !

فقال الجماعة مثل ما قال . . . ففرح السلطان بذلك . . .

وطاب قلبه . . . ومدّ لهم سماطاً حافلاً . . .

وانصرفوا من بين يديه على ذلك ! ! !

البطل ... يجأر إلى ربه ؟!

وبات صلاح الدين ليلته . . . مهموماً كئيباً . . . يفكر ويفكر ! ! !

فلما كان نهار الجمعة . . . حضر إلى صلاة الجمعة . . .

وأذن المؤذن للظهر . . . وقام فصلى ركعتين بين الأذانين . . .

وسجد . . . وابتهل إلى الله تعالى ابتهالاً عظيماً . . .

وتضرع إلى ربه . . .

وتمسكن . . . وسأله فيما بينه وبينه . . . كشف هذه الضائقة العظيمة ! ! !

شقاق ... في قيادة الأعداء ؟!

فلما كان يوم السبت من الغد . . . جاءت الكتب من الحرس الذين حول البلد . . .

بأن الفرنج قد اختلفوا فيما بينهم ! ! !

فقال ملك فرنسا : إنا إنما جئنا من البلاد البعيدة . . . وأنفقنا الأموال العديدة . . . في تخليص بيت المقدس . . . ورده إلينا . . . وقد بقي بيننا وبينه مرحلة ! ! !

وقال الإنجليز : إن هذا البلد شقّ علينا حصاره . . . لأن المياه حوله قد عدمت . . . وإلى أن يأتينا الماء من المشقة البعيدة . . . يعطل الحصار . . . ويتلف الجيش . . .

ثم انتهى رأيهم على الرحيل ! ! !

فانسحبوا راجعين . . . فساروا حتى نزلوا على الرملة . . .

وبرز السلطان بجيشه إلى خارج القدس . . .

وسار نحوهم . . . خوفاً أن يسيروا إلى مصر . . . لكثرة ما معهم من الخيل والأموال . . .

فخذلهم الله عن ذلك ! ! !

ريتشارد ... يلحّ في طلب الصلح ؟!

وترددت الرسل من الإنجليز إلى السلطان في طلب الأمان . . . ووضع الحرب بينه وبينهم ثلاث سنين . . .

على أن يعيد لهم عسقلان . . . ويهب لهم كنيسة بيت المقدس . . . وأن يمكن النصارى من زيارتها وحجها بلا شيء . . .

فامتنع السلطان من إعادة عسقلان . . . وأطلق لهم الكنيسة . . . وفرض على الزوار مالاً يؤخذ من كل منهم . . .

فامتنع الإنجليز . . . إلاّ أن تعاد لهم عسقلان . . .

فصمم السلطان على عدم الإجابة . . .

ثم ألح ريتشارد في طلب الصلح . . . وأن تكون عسقلان داخلة في صلحهم . . .

فامتنع السلطان ! ! !

البطل ... يكرم غريمه ؟!

ثم حصل للملك الإنجليز بعد ذلك مرض شديد . . .

فبعث إلى السلطان . . . يطلب فاكهة وثلجاً . . .

فأمده بذلك . . . من باب الكرم ! ! !

ثم عوفي . . . وتكررت الرسل منه . . . يطلب من السلطان المصالحة . . . لكثرة شوقه إلى أولاده وبلاده ! ! !

الهدنة ؟!

وطاوع السلطان على ما يقول . . .

وترك طلب عسقلان . . . ورضي بما رسم به السلطان ! ! !

وكتب كتاب الصلح بينهما في شعبان . . .

ووقع المواثيق كل ملك من ملوكهم . . .

وحلف القواد من المسلمين . . . ووقعوا . . .

واكتفى من السلطان بالقول المجرد . . . كما جرت به عادة السلاطين ! !

النص الكامل ... للهدنة ؟!

وفي ٢٠ شعبان سنة ٥٨٨ هـ — ١١٩٢ م . . .

عقدت بين المسلمين والفرنج . . . هدنة لمدة ثلاث سنين وثمانية أشهر تبدأ من ذلك التاريخ . . .

وفرح كل من الفريقين فرحاً شديداً . . . وأظهروا سروراً كثيراً . . .

ووقعت الهدنة على وضع الحرب . . . على أن :

١ — يسمح للنصارى بزيارة بيت المقدس . . . دون ضريبة يدفعونها . . .

٢ — على أن يقرهم على ما بأيديهم من البلاد الساحلية . . .

٣ — وللمسلمين ما يقابلها من البلاد الجبلية ! ! !

وحضر رسل الفرنج لذلك . . . وعقدوا الهدنة ! ! !

الفضل ... ما شهدت به الأعداء ؟!

وكان في جملة من حضر عند صلاح الدين . . . إليان بن بارزان . . . الذي كان يملك الرملة ونابلس . . .

فلما حلف صلاح الدين . . . قال له :

« ما عمل أحد في الإسلام ما عملت

« ولا هلك من الفرنج مثل ما هلك منهم هذه المدة

« فإننا أحصينا من خرج إلينا في البحر من المقاتلة فكانوا ستمائة ألف رجل

« ما عاد منهم إلى بلادهم من كل عشرة واحد ! ! !

« بعضهم قتلتهم أنت

« وبعضهم مات

«وبعضهم غرق» ! ! !
ولما انفصل أمر الهدنة . . .
أذن صلاح الدين للفرنج في زيارة بيت المقدس . . .
فزاروه . . . وتفرقوا . . .
وعادت كل طائفة إلى بلادها ! ! !

وفـــاة البَطَــل

البطل ... ينوي الحج ؟!

عاد السلطان إلى القدس . . . فرتب أحوالها ووطدها . . .

وعزم على الحج عامه ذلك . . .

فكتب إلى الحجاز واليمن ومصر والشام ليعملوا بذلك . . . ويتأهبوا له ...

فكتب إليه القاضي الفاضل ينهاه . . . عن ذلك . . . خوفاً على البلاد من استيلاء الفرنج عليها . . . ومن كثرة المظالم بها . . . وفساد الناس والجنود... وقلة نصحهم . . .

وأن النظر في أحوال المسلمين خير لك عامك هذا . . . والعدو مخيم بعد بالشام . . . وأنت تعلم أنهم يهادنون ليتقووا ويكثروا ... ثم يمكروا ويغدروا!!

فسمع السلطان منه . . . وشكر نصحه . . . وترك ما عزم عليه . . . وكتب به إلى سائر الممالك . . .

واستمر مقيماً بالقدس جميع شهر رمضان . . . في صيام وصلاة وقرآن ! ! !

إكرامه ... لملوك الفرنج ؟ !

وكلما وفد أحد من رؤساء الفرنج للزيارة . . . فعل معه غاية الإكرام . . . تأليفاً لقلوبهم . . .

ولم يبق أحد من ملوكهم إلاّ جاء لزيارة الكنيسة متنكراً . . .
ويحضر سماط السلطان . . . فيمن حضر من جمهورهم بحيث لا يرى ! ! !

السلطان يعود ... إلى دمشق ؟!

فلما كان شوال . . . ركب السلطان في الجيش . . .
فبرز من القدس قاصداً دمشق . . .
ودخل إلى دمشق . . . سادس عشر شوال . . .
وكانت غيبته عنها أربع سنين . . .
وخرج أكثر أهل المدينة لاستقباله . . .
واجتمع أولاده الكبار والصغار . . .
وقدم عليه رسل الملوك من سائر الأمصار . . .
وأقام بقية عامه . . . في اقتناص الصيد . . . وحضور دار العدل . . .
والعمل بالإحسان والفضل ! ! !

الأيام الأخيرة ... من حياة البطل ؟!

استهلت سنة ٥٨٩ هـ – ١١٩٣ م . . .

وصلاح الدين في غاية الصحة والسلامة . . . وخرج هو وأخوه العادل إلى الصيد شرقي دمشق ! ! !

وقد اتفق الحال بينه وبين أخيه . . . أنه بعدما يفرغ من أمر الفرنج . . . يسير هو إلى بلاد الروم . . . ويبعث أخاه إلى بغداد . . . فإذا فرغا من شأنهما سارا جميعاً إلى بلاد أذربيجان . . . بلاد العجم . . . فإنه ليس دونها أحد يمانع عنها ! ! ! .

فلما قدم الحجيج في صفر . . . خرج السلطان لتلقيهم . . . وعاد إلى القلعة فدخلها من باب الحديد . . . فكان ذلك آخر ما ركب في هذه الدنيا ! ! !

البطل ... في مرضه الأخير ؟!

ثم إنه اعتراه حمى صفراوية ليلة السبت ... سادس عشر صفر ...

فلما أصبح دخل عليه القاضي الفاضل ... وابنه الأفضل ... فأخذ يشكو إليهم كثرة قلقه البارحة ...

وطاب له الحديث ... وطال مجلسهم عنده ! ! !

ثم تزايد به المرض واستمر ... وقصده الأطباء في اليوم الرابع ...

ثم اعتراه يبس ... وحصل له عرق شديد ... بحيث نفذ إلى الأرض ...

ثم قوي اليبس ... فأحضر الأمراء الأكابر ...

فبويع لولده ... الأفضل نور الدين علي ... وكان نائباً على دمشق ... وذلك عندما ظهرت مخايل الضعف الشديد ... وغيبوبة الذهن في بعض الأوقات ! ! !

البسمة ... الأخيرة ؟!

ثم اشتد به الحال ... ليلة الأربعاء ... السابع والعشرين من صفر ...

واستدعى الشيخ أبا جعفر ... إمام الكلاسة ... ليبيت عنده ... يقرأ القرآن ... ويلقنه الشهادة إذا جد به الأمر ...

فذكر أنه كان يقرأ عنده ... وهو في الغمرات ...

فقرأ (هو الذي لا إله إلاّ هو عالم الغيب والشهادة)

فقال : وهو كذلك صحيح ! ! !

فلما أذن الصبح ... جاء القاضي الفاضل ... فدخل عليه وهو في آخر رمق ...

فلما قرأ القارىء (لا إله إلا هو عليه توكلت) . . .
تبسم . . . وتهلل وجهه . . .
وأسلم روحه إلى ربه سبحانه . . .
ومات البطل . . . وكان له من العمر . . . سبع وخمسون سنة ! ! !

شخصيّة صَلاح الدّين

وُلد في العواصف ؟!

قال والد صلاح الدين عند مولده :

« فتشاءمت به لفقدي ولدي ووطني . . . »

فقال له بعض الناس : قد نرى ما أنت فيه من التشاؤم بهذا المولود ، فما يؤمنك أن يكون هذا المولود ملكاً عظيماً له صيت ؟ ! !

فكان كما قال ! ! !

إنه وُلد في ليلة الحزن . . .

في ليلة خرج فيها والده طريداً من القلعة التي كان بها . . .

فجاءه القدر بذلك الطفل . . . في تلك الظروف . . . فتشاءم به . . . وكره مولده ! ! !

ولو كُشف الحجاب لوالده . . . وعلم أن ذلك الطفل سوف يكون بطل الشرق والغرب . . . لفرح به فرحاً لا يتناهى ! ! !

ولتُصنع على عيني ؟!

تربّى صلاح الدين في بلاط آل زنكي . . . وأتاحت له المقادير ما يجعله فارساً من صغره . . . فهو ابن حاكم إحدى القلاع . . . وقريب صلة بالسلطان ! ! !

وكذلك سنّة الله في تنشئة الرجال . . . الذين أراد أن يكونوا مظهراً لإرادة إلهية في الناس . . .

وإنك لتلمس هذا الناموس . . . سارياً جارياً في حياة كل شخصية عالمية في التاريخ ! ! !

عرش يتداعى ... ليفسح الطريق للبطل ؟!

بينما كان صلاح الدين يترعرع بين أكناف أبيه وعمه في بلاط نور الدين سلطان حلب . . . كانت هناك في نفس اللحظة . . . في القاهرة أمبراطورية توشك أن تذهب ! ! !

والعبرة من ذلك أن القدر يمهد لظهور البطل . . . وأن عرش الفاطميين الذي استمر قروناً . . . أخذ يتهدم . . . ليتقدم صلاح الدين إليه . . . ويتسلمه لقمة سهلة ! ! !

ألعوبة الوثوب ... إلى الوزارة ؟!

كانت الألعوبة المشهورة في مصر آنذاك . . . أن الطامع في الحكم ما عليه إلاّ أن يجمع له بعض الأنصار . . . ثم يثب على رئيس الوزراء . . . فيحتز عنقه . . . ويطوف برأسه في شوارع العاصمة . . . ثم يثب بعد ذلك على الكرسي مكانه ! ! !

كان ذلك هو الأسلوب المضحك في عهد آخر خلفاء الدولة الفاطمية . . . الخليفة العاضد . . .

وإن لم تسعفهم أساليب الوثوب إلى الكرسي هذه . . . استنجدوا بالصليبيين على بعضهم البعض ! ! !

وكانت تلك الفوضى . . . خير ظرف مناسب . . . يمكن صلاح الدين . . . من الصعود إلى القمة سريعاً ! ! !

البطل ••• جاء مصر على كُره منه ؟!

عندما أمر نور الدين . . . قائده أسد الدين بالمسير إلى مصر . . . للحيلولة بين الفرنج وبينها . . . سيّر معه صلاح الدين . . . ضابطاً من ضباط الحملة ... وكره صلاح الدين ذلك أشد الكره . . . لما شهده من قبل من المتاعب عندما كان حاكماً على الاسكندرية . . . وحوصرت وهو بها ! ! !

والعبرة من ذلك أن القدَر كان من وراء صلاح الدين يدفعه دفعاً رغم أنفه إلى مصر . . . لتتم القصة الكبرى . . . وهو نفسه لا يدري مما يراد به شيئاً ! ! !

بل أعجب من ذلك . . .

اختاره الخليفة رئيساً للوزارة . . . لأنه أضعف الضباط شخصية ؟!

فأرسل العاضد إلى صلاح الدين . . . أحضره عنده . . . وخلع عليه . . . وولاّه الوزارة بعد عمّه ! ! !

وكان الذي حمله على ذلك أن أصحابه قالوا له : ليس في الجماعة أضعف ولا أصغر سناً من يوسف. . . والرأي أن يُولى فإنه لا يخرج من تحت حكمنا... ثم نضع على العساكر من يستميلهم إلينا . . . فيصير عندنا من الجنود من نمنع بهم البلاد . . . ثم نأخذ يوسف أو نخرجه ! ! !

وهذا هو أعجب تمهيد من القدَر . . . ليرفع صلاح الدين إلى القمة رغم أنفه ! ! !

فهو من البداية أكره على أن يكون من بين ضباط الحملة التي بعث بها نور الدين لاستنقاذ مصر . . .

فجاءها على كُره منه . . . فلما استتب الأمر للحملة . . . وتولى قائدها أسد الدين شيركوه رياسة الوزارة المصرية . . . لم يمكث سوى شهرين وخمسة أيام في منصبه . . . ثم توفاه الله . . .

وبدأ كبار الضباط من قادة الحملة . . . كل يحلم بالمنصب . . . ولم يكن الضابط الصغير صلاح الدين يفكر في ذلك . . . لأنه يعلم أن كبار الضباط أولى بها . . .

فوقع اختيار الخليفة لصلاح الدين رئيساً للوزارة . . . مفاجأة للجميع . . .
وكان الأمر بالنسبة لصلاح الدين أشد مفاجأة ! ! !
لقد كان الخليفة يريد أن يتخذ صلاح الدين ألعوبة . . .

ولكن صلاح الدين . . . أثبت بعد ذلك . . . أنه ليس بالرجل الذي يُلعب به من خليفة غارق في الترف . . . وإنما هو الرجل الذي دوّخ العالم شرقاً وغرباً ! ! !

اقتلاع ... شجرة الاقطاع ؟!

وقلّل صلاح الدين من النظام الإقطاعي . . . الذي كان سائداً طريقة امتلاك الأراضي في العهد الفاطمي . . . وحطم بذلك استقلال أمراء الإقطاعات وقوى الحكومة المركزية . . . وكان لهذا أكبر الأثر في نشاط الحالة الاقتصادية !

واجهت المؤامرات الداخلية . . . صلاح الدين أكثر من مرة ! ! !

أصحاب المصالح . . . وأصحاب الإقطاعيات . . . هم الطبقة التي تواجه كل ذي ثورة إصلاحية . . .

وكان هذا هو ما واجه صلاح الدين . . . عندما تولى رياسة الوزارة . . .

فوجد القطر المصري عبارة عن عدد من الإقطاعات ... على كل قطاع أمير ... ينهب ويفعل ما شاء ...

فقلل من هذه الإقطاعات ... وأضعف من شأنها ... مما ربط هذه الأصقاع بالحكومة المركزية ...

فكان عمله ذاك تقريباً بين الطبقات ... وإقراراً للعدل بين الناس ... وهذا شأن كل ثائر للإصلاح ... دائماً وأبداً ! ! !

المؤامرات ... أكثر من مرة ؟!

واجهت المؤامرات الداخلية صلاح الدين أكثر من مرة ! !

فالمرة الأولى ... عندما حقد عليه مؤتمن الخلافة «نجاح» ... وكان هو الآمر الناهي بقصر الخليفة ... وأحس بغريزته أنه يوشك أن يزول بزوال الخليفة ... فبعث الكتب إلى الفرنج يستدعيهم إلى البلاد ... ليتقوى بهم ضد صلاح الدين ...

وعلم صلاح الدين بذلك فقتله ! ! !

والمرة الثانية ...

عندما ثار السودانيون ... وهم عصبية جنس مؤتمن الخلافة ... فاجتمعوا في نحو خمسين ألفاً من الجنود الأشداء لمقاتلة صلاح الدين ... فبددهم تبديداً ... وقتل منهم عدداً لا يُحصى ! ! !

والمرة الثالثة ...

وهي أخطر مؤامرة ضده ...

عندما اجتمع جماعة كبيرة برياسة عمارة الشاعر ... وانضم إليه ضحايا العهد الجديد ... من كبار موظفي الدولة الذين أُخرجوا من مناصبهم ...

وكبار التجار الذين ضيق عليهم في أرزاقهم . . . وكبار الملاك الذين ضيق عليهم في إقطاعاتهم . . .

وأحكم هؤلاء جميعاً المؤامرة . . . وكادوا يفلحون ! ! !

لولا أن الله كان من ورائهم . . .

فأمكن منهم صلاح الدين . . . فنكل بهم نكالاً شديداً . . . وصلب زعيم المؤامرة ورؤوس الفتنة ! ! !

والمرة الرابعة . . .

عندما تزعم عباس بن شادي . . . قوماً بأسوان . . . واجتمع عليه كثير من الرعاع . . . فبعث إليه صلاح الدين طائفة من الجيش . . . فهزمته وقتلته وأسرت أهله ! ! !

والمرة الخامسة . . .

عندما انتهز جماعة من الفاطميين . . . غيبة العادل عن مصر . . . وانشغال صلاح الدين بالغزو خارجها . . . وخرجوا في مظاهرة يهتفون للخلافة التي ذهبت . . . ثم انكشف أمرهم ودمروا تدميراً ! ! !

تلك هي أهم المؤامرات الداخلية التي واجهت صلاح الدين داخل مصر وحدها ! ! !

وهي غير مؤامرات لا حصر لها . . . واجهته في البلاد الأخرى التي كان يفتحها شرقاً وغرباً . . .

وهذه ظاهرة طبيعية . . . تواجه حتماً . . . كل من تصدى للثورة . . . أو قام بالإصلاح في أي عصر من العصور ! ! !

وتلك قاعدة مضطردة . . . تلمسها في تاريخ الأبطال والمصلحين ! ! !

وتلمسها واضحة جداً في سيرة صلاح الدين . . .

عندما قامت في وجهه . . . محاولات رئيس الديوان الملكي السيد « نجاح » فذهب نجاح وبقي صلاح الدين ! ! !

ونجاح هذا يمثل ثورة أصحاب المناصب الكبرى . . .

وتلمسها في ثورة الجيش القديم على صلاح الدين . . . في صورة ثورة السودانيين . . . فقُتلوا وبقي صلاح الدين ! ! !

وكانت هذه الثورة تمثل مقاومة أصحاب مراكز القوة للسلطة الجديدة ! !

وتلمسها واضحة كذلك . . . عندما اجتمع العظماء من كل طبقة . . . وراسلوا الفرنجة أعداء البلاد في ذلك . . . فانمحقت المؤامرة . . . وبقي صلاح الدين ! ! !

وهذه المحاولة تتمثل فيها انتفاضة الطبقات التي تأثرت من النظام الجديد !

ويلٌ .. لكل مَن صعد إلى القمة ؟!

ولم يكن ذلك كله . . . هو وحده الذي واجه البطل الجديد . . .

وإنما واجهته الشدائد عندما عيّنه الخليفة رئيساً للوزارة . . .

فأبى أكثر قادة جيش نور الدين أن يطيعوا له أمراً . . . وكيف يطيعوه وهو الضابط الشاب . . . الذي لم يتم الثانية والثلاثين . . . وهم كبار السن كبار المقام ؟ ! !

وليس من شك أن ذلك أمر عسير على شعور صلاح الدين . . .

فهو يتوجس منهم خيفة . . . أن يتآمروا عليه ضمن المتآمرين . . .

وقد كان . . . واشترك جماعة من جيشه في مؤامرة عمارة الشاعر . . .

وكان حصيفاً صلاح الدين عندما عفا عنهم بالذات بعد أن قدر عليهم حتى لا يواجه بمؤامرة تشبه ثورة السودانيين عليه من قبل . . . لو أنه قتل هؤلاء الكبار ! ! !

ولقد جاء صلاح الدين . . . وصعد إلى القمة . . . في ظروف عصيبة . . .
فوقف في مهب العواصف شامخاً كالطود العنيد ! ! !
وهذه علامة من علامات قوة شخصيته الخارقة ! ! !

تهب عليه من مصر . . . عواصف الحسد والحقد من قرنائه الذين تقدم عليهم ! ! !

وتهب عليه عواصف كل رجل وكل امرأة تأثر مركزه الاجتماعي بسبب حكمه الجديد . . .

وتهب عليه عواصف قصر الخلافة ومؤامرات الخليفة . . . وما أدراك ما مؤامرات الخلفاء والقصور . . . خاصة في عصور الفساد السياسي والإضمحلال الخُلُقي ! ! !

وتهب عليه عواصف القوى الخارجية الرهيبة . . . عواصف الصليبيين... الذين كانوا يطمعون في الاستيلاء على مصر . . .

فسبقهم نور الدين إليها . . .
وسبق صلاح الدين . . . سيده نور الدين هو الآخر إليها ! ! !

فقام بذلك التسابق حقد رهيب جديد . . . أخطر من كل حقد واجه صلاح الدين . . .

ذلك أن نور الدين هو الذي بعث صلاح الدين إلى مصر . . .
بعثه مجرد ضابط صغير من ضباط الحملة . . .
فإذا به يحكم مصر كلها ! ! !

إلاّ أن نور الدين . . . من الناحية الدستورية ما زال يملك عزل صلاح الدين في أي لحظة ! ! !

ولكن هذا كان متعذراً عملياً . . . لاستمكان صلاح الدين من حكم مصر ! ! !

وكان ذلك كله . . . هو الثمن الفادح الذي تحتّم أن يدفعه صلاح الدين . . . نظير صعوده إلى القمة . . .

وويلٌ . . . ثم ويلٌ . . .
لكل مَن صعد إلى قمة واستوى عليها . . .

إن كل المستويات . . . التي يتربع على عرشها . . . تنظر إليه حسداً وحقداً ! ! !

وكل ذي نعمة محسود ! ! !

متاعب ... تغيير المذهب الرسمي ؟!

كان من أخطر أعمال الثورة الصلاحية . . . قضاؤه على المذهب الرسمي للدولة الفاطمية . . . المذهب الشيعي . . . وإنهائه بذلك حالة التمذهب الشيعي في القضاء والعبادات وغير ذلك في الدولة الفاطمية ؟ ! !

وليس ذلك أمراً سهلاً . . . كما يبدو لنا في هذه الأيام . . .
إنه كان أمراً خطيراً للغاية . . . شاقاً على النفوس . . .

فقد ظلت مصر تعتنق المذهب الشيعي قرنين من الزمان . . . طوال مدة حكم الفاطميين . . .

ثم جاء صلاح الدين . . . وأقام المذهب السُّنّي . . .

لا بالقوة وحدها . . . ولكن بما مهد في قلوب الناس . . . من إصلاحات وعدالة . . .

والناس مذ خُلقوا يحبون الزعيم الذي يحقق لهم دور المنقذ . . .
وقد كان صلاح الدين صاحب هذا الدور . . .
فهو منقذ الشعب من ظلم الخلافة وظلم أهلها . . .

ومنقذه من اعتداء الصليبيين . . .

فلم يجد مقاومة في إنهاء المذهب الشيعي . . .

من طول ما عانى الشعب . . . من مظالم الخلافة آنذاك ! ! !

سقوط ... الأسرة الحاكمة ؟!

فتوفي العاضد . . . ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء . . . واستولى على قصر الخلافة . . . وعلى جميع ما فيه . . .

وأخرج منه أهل العاضد . . . إلى أدار أفردها لهم . . .

وأجرى عليهم الأرزاق الهنية . . . عوضاً عما فاتهم من الخلافة ! ! !

ويد القدر واضحة كل الوضوح في إسقاط الأسرة المالكة . . .

ذلك أنه كان على صلاح الدين كي يزحزحها . . . أن يجاهد في ذلك جهاداً كثيراً . . .

ولكن القدر تولى عنه هذه المهمة ! ! !

فتوفي الخليفة وفاة طبيعية . . .

وبين طرفة عين وانتباهتها . . . إذا بصلاح الدين هو السيد الآمر في مصر ! ! !

ولم يبقَ أمامه . . . إلاّ أهل الخليفة نساء ورجالا . . . وقد تصرف فيهم تصرف الحكيم الخبير . . .

فأعطاهم ما أنساهم مصيبتهم . . .

أما آلاف العبيد والإماء الذين كانوا في أعمال وخدمة القصور . . . فقد تخلص منهم بالبيع أو الهبة أو العتق ! ! !

زهده . . . في الأموال المصادرة ؟!

وقعت ثروة الأسرة المالكة . . . غنيمة سهلة في يد صلاح الدين . . .
وكان يمكن أن يأخذ منها ما يشاء . . .
ولكنه أبى ! ! !
فوزع من التحف الثمينة والجواهر العظيمة على الناس . . .
ولم يدخر لنفسه شيئاً مما حصل له من الأموال ! ! !
وقد لازمت هذه الصفة الكريمة . . . صلاح الدين طيلة حياته . . .
مما يقطع أن الرجل كان لا يطمع في جمع الأموال . . .
وإنما كان صاحب رسالة . . . يريد أداءها . . . ثم يمضي إلى ربه ! ! !

لا يستبد برأي ؟!

فجمع أهله . . . وفيهم أبوه نجم الدين أيوب . . . وخاله . . . ومعهم سائر الأمراء . . . وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين . . . وحركته إليه . . . واستشهارهم ! ! !

كانت صفة الشورى . . . أو الديموقراطية . . . تلازم صلاح الدين طيلة حياته السياسية . . .

وكثيراً ما كانت سبباً في إفلاته من سوء المصير . . .
وكان الرجل لا يغتر برأيه رغم ما كان له من سلطات مطلقة غير محدودة . .
وإنما يستشير كبار أصحابه وصغارهم . . .

فإذا رأى الحق في جانبهم . . . رجع إليه . . . وأخذ به . . . ومضى في تنفيذه . . .

وقد اكتسب صلاح الدين بسبب ذلك مرونة ودهاء في أموره كلها . . .

وكم من مأزق خرج منه . . . برأي غيره . . .
والعاقل من ضم إلى عقله عقول الناس ! ! !

يحسن اختيار .. مستشاريه ؟!

كان الرجل موفقاً في اختيار مستشاريه السياسيين . . .

وكان أقربهم إليه أعلمهم بالله . . . وأتقاهم . . .

ومن هذه الزاوية كان القاضي الفاضل . . . من أكبر مستشاريه المقربين . . .

وكان القاضي الفاضل عالماً جليلاً . . . عاملاً بعلمه . . . ملماً بشؤون دينه ودنياه . . .

وكم شهد مع صلاح الدين من حروب ومعارك ومآزق . . .

وكم أشار عليه بالنصيحة الخالصة التي ترده إلى ربه . . . وتكسر من غرور السلطان . . .

وكان صلاح الدين يعمل برأي القاضي الفاضل . . . ولا يكاد يعصي له نصحاً . . .

وتلك الصفة الكريمة من صلاح الدين تدل على أنه كان لا يرى نفسه شيئاً . . . على الرغم من سلطانه العالمي الفسيح . . . وأنه في حاجة دائماً لنصح المخلصين . . .

وإنه لمن يُمن الحاكم . . . أن يقيض الله له بطانة خير . . . تشير عليه دائماً بما فيه الخير للبلاد والعباد ! ! !

وفاة نور الدين ؟!

توفي نور الدين بعلة الخوانيق . . . وكان قد شرع يتجهز للدخول إلى مصر لأخذها من صلاح الدين ! ! !

وهكذا تقدم القدر . . . وأعفى صلاح الدين من مأزق خطير بالنسبة إلى مستقبله السياسي . . .

فلو عزم نور الدين على الدخول إلى مصر لدخلها . . . ونزعها من يد صلاح الدين ! ! !

إلاّ أن الله يريد أن يبقى صلاح الدين ويذهب نور الدين . . .

إن المقادير التي أعفته من الخليفة العاضد . . . هي هي التي أعفته هذه المرة من نور الدين ! ! !

صلاح الدين ... الوارث الطبيعي لنور الدين ؟!

وكما ورث صلاح الدين مُلك الخليفة العاضد عند موته . . . فإنه ورث مُلك نور الدين عند موته . . . وأصبح هو الوارث الطبيعي لأملاك نور الدين . .

فكما كانت مصر هي الثمرة النضيجة التي قدمها القدر له بسقوط الخلافة الفاطمية . . .

فإن سوريا صارت كذلك بموت صاحبها نور الدين . . .

وقد كان ذلك كله . . . وأخذ صلاح الدين يفتح مملكة سيده نور الدين في سوريا . . . حتى دانت له كلها ! ! !

حاولوا اغتياله مراراً ... فأبى القدر ؟!

وحمل أحدهم على صلاح الدين ليقتله فقتل دونه . . .

وقاتل الباقون من الإسماعيلية .. . فقتلوا جماعة ثم قتلوا ! ! !

وكانت هذه هي المرة الأولى . . . وقد خاب الفدائيون ولم يفلحوا . . . لأن الله يريد أن يبقى . . . أن يؤدي الدور الموكول إليه ! ! !

ولكن الأعجب من هذا . . . المحاولة الثانية لاغتيال صلاح الدين ! ! !

عندما بقي الباطني يضربه في رقبته بالسكين . . . وكان عليه كزاغند . . . فكانت الضربات تقع في زيق الكزاغند فتقطعه . . . والزردية تمنعها من الوصول إلى رقبته ! ! !

ثم أخذ الفداوي رأس السلطان فوضعه إلى الأرض ليذبحه . . . ومَن حوله قد أخذتهم الدهشة ! ! !

ثم ثاب إليهم عقلهم . . . فبادروا إلى الفداوي فقتلوه ! ! !

ثم هجم عليه آخر فقُتل ! ! !

وواضح جداً في هذا الفيلم من تلك المحاولة العجيبة لقتل صلاح الدين ... وإفلاته من موت محقق ... أن الله يريد بقاء الرجل . . . مهما دَبَّرَ الأعداء ! !

وفاة الملك الصغير ... إسماعيل نور الدين ؟!

وفي الخامس والعشرين من رجب سنة ٥٧٧ هـ . . .

توفي الملك إسماعيل بن نور الدين بقلعة حلب ودُفن بها ! ! !

وهكذا تقدم القدَر مرة أخرى . . . ورفع عائقاً جديداً من طريق صلاح الدين . . . ومهد السبيل أمامه تمهيداً عجيباً ! ! !

حتى هذا الملك الطفل . . . الذي ورث أباه نور الدين . . . والذي لا يُخشى على صلاح الدين عن خطره . . . حتى هذا يموت ويترك المسرح خالياً من منازع للبطل . . . ليتقدم ويرث مُلكاً عريضاً ! ! !

لا تشغله السياسة ... عن طلب العلم ؟!

وفي شوال من سنة ٥٧٧ هـ . . .

توجه الملك صلاح الدين إلى الإسكندرية . . . لينظر ما أمر به من تحصين سورها وعمارة أبراجها . . .

وسمع بها موطّأ مالك . . . على الشيخ أبي طاهر بن عوف . . . عن الطرطوشي ! ! !

هذا هو صلاح الدين ! ! !

رغم مشاغله السياسية العديدة . . . ومتاعبه الكبيرة . . .

فإنه لم يغفل عن التفقه في أمور دينه . . .

ولم يتوقف عن الاستزادة من العلم . . . والاستماع إلى أحاديث رسول الله . . . صلى اللهعليه وسلم ! ! !

فجلس يستمع إلى موطأ مالك ! ! !

إنه صاحب رسالة ربانية ! ! !

إنه يستكمل عناصر رسالته ! ! !

فاصبر . . . جميلاً ؟ !

ولما خرج عماد الدين إلى صلاح الدين . . . وقد عمل له دعوة احتفل فيها . . .

فبينما هم في سرور . . . إذ جاء إنسان فأسرّ إلى صلاح الدين بموت أخيه . . .
فلم يُظهر هلعاً ولا جزعاً ! ! !
وأمر بتجهيزه سرّاً ! ! !
ولم يعلم عماد الدين ومَن معه في الدعوة ! ! !
واحتمل الحزن وحده . . . لئلاّ يتنكد ما هم فيه . . .
وكان هذا من الصبر الجميل ! ! !

وهذه صفة أخرى من صفات صلاح الدين الكريمة . . . صفة الصبر الجميل ! ! !

والصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه . . . وإنما الصبر عند الصدمة الأولى ! ! !

جاءته صدمة نبأ وفاة أخيه . . .
فاحتملها وحده . . . ولم يُبدِها لهم . . .
لقد كان إنساناً كريماً عظيماً ! ! !

البطل الإنسان ؟!

قالوا :

« كان للمسلمين فدائيون يدخلون إلى خيام العدو . . . فيسرقون منهم الرجال . . .

« وكان من قصتهم أنهم أخذوا ذات ليلة طفلاً رضيعاً له ثلاثة أشهر . . .
« وساروا به حتى أتوا إلى خيمة السلطان وعرضوه عليه . . .
« وكان كل ما يأخذونه يعرضونه عليه ويعطيهم ما أخذوه . . .

« ولما فقدته أمه باتت مستغيثة بالويل والثبور طول الليل . . . حتى وصل خبرها إلى ملوكهم . . .

« فقالوا : إنه رحيم القلب . . . وقد أذنا لك في الخروج . . . فاخرجي واطلبيه منه . . . فإنه يرده عليك . . .

« فخرجت تستغيث إلى الحرس . . . فأخبرتهم بواقعتها . . . فأطلقوها وأنفذوها إلى السلطان . . .

« فلقيته وهو راكب . . . وفي خدمته خلق عظيم . . .

« فبكت بكاء شديداً . . . ومرغت وجهها في التراب . . .
« فسأل عن قصتها . . . فأخبروه . . .
« فرقّ لها . . . ودمعت عيناه . . .
« وأمر بإحضار الرضيع . . .
« فوجدوه قد بيع في السوق . . .
« فارتده . . . وأمر بدفع ثمنه إلى المشتري . . . وأخذه منه . . .
« ولم يزل واقفاً . . . حتى أحضر الطفل . . . وسلم إليها . . .
« فأخذته . . . وبكت بكاء شديداً . . . وضمته إلى صدرها . . .
« والناس ينظرون إليها . . . ويبكون . . .
« فأرضعته ساعة . . .
« ثم أمر بها . . . فحملت على فرس . . .
« ولحقت بعسكرهم مع طفلها » ! ! !
ما هذا ؟ ! ! !
هذا مفتاح خطير . . . من مفاتيح شخصية صلاح الدين ! ! !

إنه رحيم القلب ؟!

هذا هو نطق الأعداء . . . ووصفهم لصلاح الدين . . .

والعظمة الحقيقية . . . أن يكون البطل ذا سلطات مطلقة . . . وفي نفس الوقت . . . يرق قلبه . . . وتدمع عينه . . . من أجل اختطاف رضيع من أمه ؟ ! !

منتهى السلطة . . .

ومنتهى الرحمة ! ! !

وتلك هي الشخصية العظيمة حقاً وصدقاً ! ! !

يا ليت هذه الأقصوصة . . . تجد من يخرجها فيلماً سينمائياً . . . أو تليفزيونياً . . . فيعرض على الجماهير شيئاً قليلاً من عظمة صلاح الدين ! ! !

كريم ... إلى الغاية ؟!

استولى صلاح الدين على آمد . . .

ثم وهبها بما فيها لنور الدين . . . وكان في خزانتها . . . ثلاثة آلاف ألف دينار . . .

وغيرها من المعدات والأسلحة والمؤن الشيء الكثير . . .

فامتدحه الشعراء :

قل للملوك تنحوا عن ممالككم فقد أتى آخذ الدنيا ومعطيها

وهذا مفتاح آخر من مفاتيح تلك الشخصية العليا ! ! !

إنه يعطي عطاء مَن لا يخشى فقراً . . .

ويهب الخزائن بما فيها . . . في غير تردد ولا خوف . . .

وهذا دليل أصالته في صفة الجود والكرم . . .

وأنه كان شجاعاً دائماً . . كريماً دائماً . . . جواداً دائماً ! ! !

عظمة صلاح الدين ... يوم فتح القدس ؟!

تتلألأ صفاته العليا . . . مجتمعة ومكتملة في موقف واحد . . .

يوم فتحه لبيت المقدس ! ! !

يوم سمح لأهل المدينة جميعاً بالخروج منه إلى حيث شاءوا . . .

أشرافه وفقراءه . . .

وعفا عن الجميع . . . وصفح عن الجميع . . . وتركهم يخرجون بأثقالهم وتفائسهم وكل ما يملكون . . .

لم تطمح نفسه إلى شيء من كنوز المدينة . . .
ولم يندفع قلبه إلى انتقام ! ! !
دخل بيت المقدس ظافراً قاهراً . . .
وكان يستطيع إن شاء . . . أن يستأصل كل من فيه من الأعداء . . .

خاصة وأن الذين لاذوا بالبيت المقدس هم أشدهم له عداء . . . بأحقادهم وأخطارهم . . .

ولكنه عفا . . . وعفا . . . وأطلقهم ! ! !

وصلاح الدين في هذا يعلو على كثير من مشاهير الفاتحين العالميين أمثال نابليون والإسكندر وغيرهم ! ! !

فلو أن فاتحاً استمكن كما استمكن صلاح الدين من أعدائه المتكتلين عليه بالقدس . . . لنكّل وقتل وشرّد . . .

ولكنه لم يفعل . . . رغم أن الصليبيين ذبحوا الآلاف عندما احتلوا القدس لأول مرة . . .

وكان من حق صلاح الدين ... أن يثأر لهم . . . وشرّ بشر . . . والبادي أظلم . . .

ولكن البطل عفا . . .
فكان عظيماً وكريماً ! ! !

أخطر مفاتيح ... شخصيته ؟!

أثار سقوط بيت المقدس في يد البطل . . . ثائرة أوروبا كلها . . .

فصاحوا صيحة واحدة . . .
الويل لصلاح الدين . . .
اخرجوا للقضاء على صلاح الدين ! ! !

وخرجت الحملات الصليبية الثالثة . . . وعلى رأسها أعظم ملوك أوروبا آنذاك . . .

أمبراطور ألمانيا . . . فريديريك بربروس . . .
ملك فرنسا . . . فيليب أوغسطس . . .
ملك الإنجليز . . . ريتشارد . . . قلب الأسد ! ! !

ولقد خرج الألمان في ٣٠٠٠٠٠ ثلاثمائة ألف مقاتل . . . يريدون الإجهاز عليه . . . وعلى جيوشه كلها ! ! !

وخرجت الحملتان . . . الفرنسية والانكليزية . . . في جموع وأساطيل رهيبة ! ! !

وتأزم الموقف ! ! !
وهاهنا تتلألأ شخصية صلاح الدين . . .
ويبرز منه السر الأعظم . . . من تكوين شخصيته . . .
أنه لا يخشى أحداً إلاّ الله ! ! !
وهؤلاء الرجال قليل . . .
آحاد على مدى التاريخ البشري . . . وهم أقوى . . . وأخطر . . .
صنف على الإطلاق . . . في البشر ! ! !
إذا اجتمع على الرجل منهم . . . الناس جميعاً . . .
ازداد تصلباً . . . واندفع يقاتلهم . . . ولو كان وحده ! ! !
ها هي أوروبا بأكملها . . . الغرب كله . . . بجيوشه ومكره وقواته . . .

يخرجون لحرب صلاح الدين ! ! !

وصلاح الدين يقف شامخاً . . . قد قبل التحدي ! ! !

فماذا كان من البطل ؟ ! !

استصرخ ربه أولاً . . . فجعل يناديه ويناديه . . .

وهذا مظهر إيمانه العميق ! ! !

ومَن كان الله معه . . . فكل شيء معه . . .

ومَن كان الله عليه . . . فكل شيء عليه ! ! !

وقد كان . . . وعادت هذه الحملات كلها بالخيبة التامة . . . بعد أن هلك منها مَن هلك . . . وقُتل منها من قُتل . . .

عادت بهدنة الرملة . . .

وهي إقرار كامل من أوروبا كلها . . . أن يبقى بيت المقدس بيد صلاح الدين . . . على أن يأذن للمسيحيين بزيارته ! ! !

الدنيا في يديه ... ولا يمد إليها عينيه ؟!

ثبت أن صلاح الدين مات . . . ولم يترك في خزانته من الذهب . . . سوى جرم واحد – أي دينار واحد – وستة وثلاثين درهماً . . .

ولم يترك داراً . . . ولا عقاراً . . . ولا مزرعة . . . ولا بستاناً . . . ولا شيئاً من أنواع الأملاك ! ! !

تأمل . . . بطل قهر العالم كله . . . شرقيه وغربيه . . .

واستولى على كنوز الشرق والغرب . . .

ودان الشرق له والغرب . . . وفتح الممالك كلها . . .

ودوّخ الصناديد . . .

وامتد ملكه إلى مشارق الإرض ومغاربها آنذاك . . .

ثم يموت . . . ولم يترك شيئاً ! ! !

فماذا تكون العظمة . . . إلاّ ذاك ! ! !

إيه . . . صلاح الدين ! ! !

إيه . . . أيها البطل ؟ ! ! !

فليتقهقر الأبطال . . . ولتتقدم أنت عليهم . . .

إنك أنت الأعلى ! ! !

البطل ... لم تفته الجماعة ... في صلاة ؟!

وكان مواظباً على الصلوات . . . في أوقاتها . . . في الجماعة . . .

يقال أنه لم تفته الجماعة في صلاة قبل وفاته . . .

حتى ولا في مرض موته . . .

كان يدخل الإمام . . . فيصلي به . . .

فكان يتجشم القيام مع ضعفه ! ! !

رجل حارب الشرق كله . . . حتى وحّده . . . وخلصه من الفرقة . . . ونزوات حكامه . . .

ثم أقبل بالشرق كله . . . فحارب به الغرب كله . . .

فهو رجل حارب العالم كله . .. وانتصر على العالم كله ! ! !

فكيف تكون مشاغله . . . وكيف تزدحم عليه المسئوليات الكبرى ازدحاماً ؟ ! !

وأعجب العجب من شخصيته . . . أنه لم تفته قط . . . صلاة واحدة . . . في جماعة ! ! !

حتى في مرض موته ! ! !
أي شخصية هذه ؟ ! !
وكيف كانت . . . وكيف استطاع صلاح الدين . . . أن يجمع بين حق الله . . . وحق الناس . . . هذا الجمع المعجز ؟ ! !
إنه آية من آيات الله . . .
تجلت في إنسان ! ! !

سريع . . . الدمعة ؟ !

وكان رقيق القلب . . . سريع الدمعة . . . عند سماع الحديث ! ! !
أي عندما يسمع شيئاً . . . من أحاديث النبي . . . صلى الله عليه وسلم . . . الشريفة ! ! !
إنه يحب رسول الله . . . صلى الله عليه وسلم . . . حباً شديداً . . .
فإذا ما سمع شيئاً من حديثه الشريف . . . ترى عينه تفيض من الدمع ! ! !
كمال واكتمال في الشخصية . . .
لا تتخلف شخصيته . . . في صفة من صفات الكمال ! ! !
فهو بطل الأبطال . . . في الحرب والسياسة . . .
وهو بطل الأبطال . . . في الإيمان والإنسانية ! ! !
ففي تكوين شخصيته إعجاز عجيب ! ! !

يعظم ... حرمات الله ؟!

وكان كثير التعظيم لشرائع الدين . . .
كان قد صحب ولده الظاهر . . . وهو بحلب . . . شاب يقال له الشهاب . . . وكان يعرف شيئاً من الشعبذة والأبواب النيرنجيات . . .

فافتتن به ولده السلطان الظاهر . . . وقربه وأحبه . . .
وخالف فيه حملة الشرع . . .
فكتب إليه أن يقتله لا محالة . . .
فصلبه عن أمر والده . . .
وشهّره ! ! !
ذلكم هو صلاح الدين . . .
تنفيذ فوري . . . لأمر الله . . . وأمر رسوله ... صلى الله عليه وسلم ! !
« إنما جزاء الساحر ، ضربة بالسيف » . . .
إذاً تحتّم قتل هذا الساحر ولو كان مقرباً من ولده ! ! !

بَسْطَة ... في العلم والجسم ؟!

وكان من أشجع الناس . . .
وأقواهم بدناً وقلباً . . .
مع ما كان يعتري جسمه من الأمراض والأسقام ! ! !
هذا تصوير معاصريه لشخصيته ! ! !
أقواهم بدناً . . . وقلباً ! ! !
تتمثل في شخصيته إشعاعات قوله تعالى :
« إنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ
« وَزَادَهُ بَسْطَةً في العِلْمِ والجِسْمِ
« وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ
« وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » ! ! !
بسطة في العلم . . . والجسم ! ! !
كان صلاح الدين . . . نموذجاً فذاً . . . لتحقق هذين الصفتين . . . الحتميتين . . .

في كل بطل يختاره الله . . .
لأداء دور المنقذ للشعوب ! ! !
بسطة في العلم . . .

هي العبقرية السياسية . . . التي تستشف غيوب المقادير . . . وتدرك ما لا يدرك عوام الجماهير . . . وخواص الشعوب . . .

تلك العبقرية التي تلهم أولئك الأبطال . . . قراراتهم التاريخية . . . التي تكون بعد ذلك مثار إعجاب العالم . . . وتحليل المؤرخين والباحثين ! ! !

وبسطة في الجسم ؟ ! ! !
هي مدار احترام ومهابة شخصية القائد . . . في أعين الجماهير ! ! !
لا بد من توافر القوة القلبية . . . والقوة البدنية . . .
وقد كان هذا موفوراً في شخصية صلاح الدين ! ! !
فكان مؤهلاً لأداء دوره . . . دور بطل العالم كله ! ! !

يزلزل العالم ... وهو يضحك ؟!

وكان سخياً . . . حيياً . . .
ضحوك الوجه . . . كثير البشر . . .
لا يتضجر من خير يفعله . . .
شديد المصابرة على الخيرات والطاعات ! ! !
شخصية بهيجة . . . ذات بهجة ! ! !
تتفجر حياة وقوة ! ! !
إن صلاح الدين هذا العبقري . . . الذي طأطأت له رؤوس الأبطال . . .
صلاح الدين الذي كان الشرق في يمينه . . . والغرب في يساره . . .
كان ضحوك الوجه . . . كثير البشر ! ! !

أنّى يكون له هذا ؟ ! !

وهو يحمل هموم العالم ؟ ! ! !

سر ذلك منه . . . أنه كان يحب الموت . . . كما يحب الناس الحياة ! ! !

ومتى تفجر في بنيان شخصٍ ما هذا الينبوع . . .

كان ضحوكاً . . . كثير البشر . . .

لا يفزع حين يفزع الناس . . . ولا يحزن حين يحزنون ! ! !

« ألا إنّ أوْلِياءَ الله

« لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ

« وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ » ! ! !

تم

فهرس

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

شخصية صلاح الدين

صفحة